من حكم أولياء الله

حضرة مولانا

جلال الدين الرومي رحمه الله

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم



اسطنبول ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م

إسطنبول: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م

إسم الكتاب باللغة التركية: Hak Dostlarından Hikmetler / Hazret-i Mevlânâ

إسم الكتاب باللغة العربية: مِن حِكم أولياء الله/ حضرة مولانا جلال الدين الرومي.

الترجمة للعربية: أحمد حمدي يلديليم.

مراجعة وتصحيح وتدقيق: إياد أربكان.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف.

ISBN:٩٧٨٩٩٤٤٨٣٩٠٢٠

Language: Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم.



العنوان:

- Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi / Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم

يصدح مولانا في العَالَمَ بأسره، بأنَّ القرآن والسنة هما منشأ السر والحكمة الواقرين في قلبه، فيقول:

من بندهٔ قرآنم اگر جان دارم

من خاک ره محمد مختارم

گر نقل کند جز این کس از گفتارم

بیزارم از او وز این سخن بیزارم

بیزارم از او وز این سخن بیزارم

«ما بقيت الروح في هذا الجسد، فإنِّي للقرآن خادم، وتحت نعال محمد المختار ﷺ تراب.

وما لأحد أن يزيغ بكلمة في كلماتي (عن هذا السبيل)، إلا وأنا بريء منه، ومن كلامه !...».

مُقَدِّمَة

نحمد الله تعالى إذ أخرجنا من العدم إلى الوجود لا لغَرَض، وسوَّانا من بين ما لا يُحصى من المخلوقات "بشرًا"، وشرّفنا وكرمنا بنعمة الإيمان والإسلام، وأنعم علينا بمزيّة الانتساب لأمّة خاتم النبيين ﷺ، وتفضّل علينا بأن خاطبنا بكتابه الكريم، ومنحنا أن ننهل من ورثة الأنبياء من العلماء والعارفين، حمدًا لا أُفُقَ له ولا منتهى، ونثني عليه بما لا يُحصى من الحمد والثناء.

ونصلي ونسلم صلاة لا انقطاع لها، على إمام الهُداة في هذا الكون الرحيب، وشفيعنا يوم الحساب المَهيب، محمد ﷺ، وعلى آل بيته الأطهار، وصحبه الأبرار.

أما بعد، فمن الناس من مضت أيامهم ولكنهم ما زالوا بيننا أحياء، ومنهم من بقيت أنفاسهم نابضة غضة إلى يومنا هذا تمدُّ القلوب بالحياة، مع أنهم عاشوا في غابر الأزمان، ولكن مهما تقادم عليهم الزمن، فهم يحتفظون بجدتهم وبريقهم.



"أولياء الله" هم الذين عرفوا سرَّ الحياة السرمدية بإفناء كل فانٍ عندهم في سبيل ربّهم الباقي. أولياء الله، هم ورثة النبي ﷺ الذي عاش الإيمان وجداً ومحبة. وهم العباد العارفون بربهم، الذين بلغوا حُسن الخُلُقِ، وكمال الفعل، مستقين من معين القرآن والسنة. فهم القدوة التي حُقَّ اتباعها لمن لم يتسنَّ له رؤية النبي ﷺ المختار وصحبه الأخيار.

أولياء الله مثواهم أفئدة المؤمنين. فقد استمروا إلى يومنا هذا بفيض روحانياتهم وأعمالهم النابعة من شغاف القلب رغم اندثار أجسادهم الفانية تحت التراب منذ عهود، وسيبقون إلى ما شاء الله بإرشاد القلوب التي قَسَمَ الله لها نصيبًا أن تنهل من عطائهم. هؤلاء هم العباد الذين حازوا شرف البقاء في القلوب بعد وفاتهم لأنهم بلغوا سرَّ "الموت قبل الموت".

ومولانا جلال الدين الرومي رحمه الله، واحد من أولياء الله البارزين، الذين أحسن الله إليهم ببركة تجاوزت العصور، وأنزلهم منزلة إحياء وتنوير وإرشاد القلوب.

مولانا؛

هو منادٍ ينادي للإيمان، وطبيبُ قلب حاذق.

نداؤه القلبي، وصداه الروحي، هو الدواء الناجع لأمراض القلب لكل الناس، وحتى قيام الساعة.

هو داعٍ لوصالٍ لن يَبلى أبدًا، وسيبقى أثره على الدوام.

وهذه الأبيات من ديوانه "**المثنوي**" تعبير جميل عن سرِّ استمرار حيوية دعوته القلبية:

«انظر إلى نهر الحياة الأبدي، واسكب الماء من الكأس، اسكب عمرك الفاني في النهر الأبدي، هل ترى الماء يفر من النهر؟».

«يتخلص ماء القِدر من كينونته الفردية، عندما يمتزج ويصير من ماء النهر».

«عندها، تتلاشى صفات الماء في القِدر، وتبقى ذاتُه، فلا نقصان بعدها، ولا يَتعكّر ولا ينْتُن».

كذلك، فإنّ النداءات القلبية لمن بلغوا قوام الجوهر، بالتجرد من الوجود الفرداني الفاني والنفسي، راجعين إلى أصلهم، لا تَبلى، ولا تُبلى ولا تندثر، حتى ولو مضت عليها القرون. فكما أنّ نهر صقاريا لا يبقى له من صقاريا شيء ويضيع في البحر الأسود بعد أن يصب فيه، فإنّ أولياء الله هؤلاء أنهارٌ تجرَّدت من كل لون وشكل وهيئة وصفة وجريان لذواتهم الفانية، وامتزجت ببحر الخلود.

ومن أُفُق الأبدية أنار مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (عاش ما بين ١٢٠٧- ١٢٧٣) بمؤلّفاته حقائقَ وجود الإنسان التي تقادم عليها الزمن. لذلك لم تفقد تلك الآثار شيئًا من حيويتها وتجدّدها بفحواها ومحتواها وأساليبها رغم مضيّ القرون. ومازال



مولانا ينشر رياح الجنة في حدائق القلوب، كنسمة ربيع هبت من جنان الماضي.

لقد كان أولياء الله الكبار هؤلاء هُداةً للمجتمعات التي حلّوا فيها، ولمن حُرِموا نور الهداية، وللأفئدة البائسة والمتعبة، وللقلوب العطشى إلى الإرشاد، وحتى للسلاطين الذين كانوا يحكمون العالم، وذلك لأنهم نظروا إلى الأحداث دائماً من نافذة القلب، وبعين الحب والعشق الإلهي. فقد وقفوا على جمٍّ من الأسرار والحِكم التي لا تُدرَك بمجرد العقل والمنطق والعلم الظاهر، وشُرِّفوا بتجلّيات المحبة والعشق والوجد الإلهي الذاخر.

إنّ مولانا حين وضع خلاصة لحياته، وصف حاله في قمة العلوم الظاهرية فقال: «كنت غضاً»، وحاله في بداية تكشُّف أسرار الكون له ببلوغه تجليات معرفة الله ﷻ فقال: «لقد نضجت»، وحاله حين بلغ محبة الذات الإلهية، أي حال الفناء في الله، بقوله: «لقد احترقت، وتوقّدْتُ».

إنّ علماء القلب الذين جُبِلوا بالمحبة الإلهية كمولانا جلال الدين الرومي رحمه الله، ولأنهم جعلوا الرضا الإلهي وجهتهم ومقصدهم في كل تفكّرٍ وحِسٍّ، فإنّ الله تعالى يكون بصرهم الذي يبصرون به، ويدهم التي يبطشون بها[1]. ولأنهم يغدون مركز جذبٍ نوراني، فإنّ

١. انظر: البخاري، الرِقاق، ٣٨.



أفئدة الناس تهوي إليهم، ومحبتهم ترسخ في قلوب الظامئين للحق والخير من الناس، أرادوا ذلك أم لم يريدوا. فكما أحبَّ الحق تعالى هؤلاء العباد الصالحين، فإنه يبعث محبتهم في قلوب العباد الآخرين على قدر نصيبهم.

فالله تعالى يقول في كتابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٢]

ويقول فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ فيما صح عنه:

«**إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل: إن الله قد أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض**» (البخاري، بِدء الخَلقِ، ٦)

وهذه المحبّة، هي شرارة قلبية، تحيط بكل الناس على اختلاف مشاربهم ومسالكهم، من أدنى طبقات الناس لأعلاها.

وتدفق الزائرين على ضريح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله اليوم ليس إلا مظهراً من مظاهر هذه المحبّة.

وكما هو معلوم، فإنّ كتابه "**المثنوي**" واحدٌ من الآثار التي تلقى اهتمامًا كبيرًا في العالم الغربي اليوم بين الآثار التي تتعلق بروح الإنسان، وذلك فضًلا عن مكانته في العالم الإسلامي. وإنّ اختيار

٢. مريم: ٩٦

منظمة اليونيسكو حضرة مولانا شخصية عالمية في عام ٢٠٠٧ بجعل ذكرى مولده الثمانمائة يوم استذكار جلال الدين الرومي رحمه الله، هو مِن الأمور اللافتة في هذا السياق.

هذا يعني أنّ رسالة الإرشاد التي خطها مولانا صاحب الحقّ للإنسانية منذ قرون، مازالت تلقى صدى وتفاعلاً كبيراً في العالم بأسره حتى يومنا هذا. لأنّ "**المثنوي**" يشكل مرآة للعالم الروحي للإنسان، تعينه على التعرف على نفسه، والعودة إلى أصله، وحلّ مشكلاته الروحانية. وينثر السكينة والسلام على الجانب الروحي للناس بعدما سُحِقَ تحت سطوة الفلسفة المادية في عصرنا، فيكون لهم وسيلة للهدى. ولهذا، فإنّ مولانا، ومن مثله، هم أناس لا يُنسَون، ويُذكَرون بالخير، ويحظون بالمحبة.

وكيف لهم أن لا يحظوا بالمحبة؟.. وقد شكّلت مساكن قلوب أولياء الله، كمولانا، ملاذَ رحمةٍ أبدية مفتوحاً للكثير من الناس، من الخائب إلى الغريب، ومن صالحهم إلى مُذنبهم.

لهذا السبب تفتقد الإنسانية دائمًا حضن أولياء الله كعبد القادر الجيلاني، وبهاء الدين النقشبند، وعزيز محمود هدائي، وجلال الدين الرومي وغيرهم. ولأنّ تلك الذوات العارفة، نظرت بعين الرحمة والشفقة إلى المجرمين، وكأنهم طائر مكسور الجناح، بحكم أن "عُطلُ الآلة يودَع في مرأب الإصلاح". وقد رأى هؤلاء مداواة جراحهم الروحية في تلك العيادات القلبية، وسيلة للسعادة، وأغلى من نِعم الدنيا.



ومن جهة أُخرى، فإنه وكما لكل نبي سمات فارقة تميزه، فإنّ لأولياء الله خصوصيات مختلفة لأنها انعكاس من منهل المبعوث رحمة للعالمين محمد ﷺ. فهم جميعاً يعرفون الله جَلَّ جَلالُهُ في عالمهم الروحي، بصورة أكثر عمقًا واتساعًا من إدراك وإحساس سائر الناس. وهم يعيشون على دأب التقرب إلى الحق عَزَّ وَجَلَّ بالزهد في كلّ ما هو فانٍ. وهم يدركون بصورة دائمة عجزهم وضعفهم في فضاء معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ الذي لا حدّ له ولا نهاية. ومع ذلك، فإنهم لم يُكلّفوا تكليفاً واحداً، وذلك لاختلاف أزمانهم.

فبعص أولياء الله، يعكفون في مقام الذهول في أعماق العظمة الإلهية التي يغوصون فيها، فيقضون حياتهم في انزواء الصمت الدائم، لا يصدر لهم صوت ولا تخرج من أفواههم كلمة، وذلك لكونهم غير مكلّفين بالإرشاد. هؤلاء يكونون كالبُكم أمام فيض القدرة الإلهية. وتنقضي أعمارهم الفانية في شاعريّة صمت روحانية.

وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن مثل هذه الزمرة المميّزة من العباد:

«إن لله عبادًا اسكتتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم، وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقا».

وإنّ من أهل الله فئة يختارون قلّة المقال، كفضيلة الشيخ بهاء الدين النقشبند، وهؤلاء وقع على عاتقهم إرشاد ذوي الإدراك المبصر بلسان الحال مع العوام.

ولا شكَّ أنّ خير آثار فضيلة الشيخ النقشبند رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هم الأشخاص العارفون الذين نشَّأهم بانعكاس أحواله على صحبتهم. هؤلاء الأشخاص درسوا الحكمة المسطّرة في صفحات قلبه على مرّ القرون، ونقلوها من القلوب إلى القلوب وما زالوا ينقلونها حتى الآن.

أمّا بعض أهل الله فيتوجّهون للناس في نهاية السير والسلوك. هؤلاء هم المرشدون الكاملون الذين وقع على عاتقهم الإرشاد بالحال والمقال. الأولياء كهؤلاء يتحوّلون إلى جنادلٍ، وتشرع الحكمة والأسرار الإلهية بالفيض من ألسنتهم وقلوبهم.

ومولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هو واحد من أولياء الله هؤلاء. فقد أُمِرَ ببيان اللسان علاوة على لسان الحال. لذلك فهو سلطان المعاني الذي يتابع منذ قرون مهمته في إحياء وإرشاد القلوب الباحثة عن الحقيقة والمتعطشة للحق، بالكلمة والقلم والكتاب، وغزارة القول.

ويُعتَبر مولانا في موقع الناطق باسم أولياء الله، بما نال من تجلّيات الله عليه بصفته الكلامية. يعني أنّ الله عَزَّ وَجَلَّ مكّنه من أن يعكس ما أنعم عليه من علم وعرفان وحِكَم وأسرار، على كلامه، وذلك بما أحسن الله عَزَّ وَجَلَّ إليه من قدرة استثنائية على التعبير. لكن هذه الإفادات ليست إلا بقَدْر ما أُتيح له. لذلك يجب ألا يُعتَقد أنّ كل ما وقف عليه مولانا من أسرار وحِكمة إلهية، هي ما جرى على لسانه فقط. فمن يدري كم

من دُرر المعاني النفيسة بقيت مكنونة محجوبة عن الأنظار في أعماق بحر قلب عاشق الحق الكبير هذا؟.

فالذوات العارفة، تتصرف في المناسبات البشرية، وكأنها ليست على علم بمعظم ما وقفت عليه من الأسرار والحكمة والحقائق، كالمعلم الذي يشرح للطفل دروسًا بصورة تدريجية. هذا، وقد عُبِّر بـ "التجاهل العرفاني" كنايةً عن حالة التظاهر بعدم العلم بشيء مع العلم به حقيقة.

ولعلَّ تعبير مولانا في المثنوي وفقاً لمدارك حسام الدين جلبي، هو انعكاس لهذه الحقيقة. فمن يعلم كيف يكون نتاج هذا القلب لو أنه كتب مثنويه وفق إدراك شمس التبريزي، بدلاً من حسام الدين جلبي؟...

هذا يعني أنّ أخلّاء الله الذين نالوا تجليات معرفة الله ومحبته، هم كمحيطٍ لا يمكن الوقوف على اتساعه أو سبر أغواره. وكلٌّ يغوص في عمق هذا المحيط ويصطاد من ياقوته على قدر استعداده.

حيث أفاد أحد المفكرين العاشقين لمولانا، بأنّ أكثر الناس يعانون من العجز في إدراك الأحوال الباطنية لمولانا إدراكًا يليق بها، فيقول:

«نحن سمعنا صرخات وجدِ مولانا جلال الدين. ولا يمكن لنا أن نرى أعماق بحر السكينة الذي غاص فيه. نحن نرى ما يرجعه البحر ويرميه من أعماق قاعه إلى سطح مائه. نحن لم نعرف عشق



مولانا بل بلَغتَنا فقط الصرخات التي صدح بها هذا العشق. وهذا هو كل شيء حاولنا أن نعبّر عنه بلساننا الألكن. فهو وحده الذي غاص في بحر السكينة. وبقيت لنا الأصوات التي صدرت عن عاصفة الوجد. وهيهات لنا أن نعتقد أنّ هذا هو مولانا»[٣].

ونحن أيضًا علينا أن نسعى للاستفادة بقدر قوتنا من بحر المعاني هذا على مبدأ « ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جلّه ".

ويجب ألا ننسى أننا أمّةٌ عُرِفَت عبر تاريخها بأنّ أكثر ما تقرأه بعد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ هو المثنوي الشريف.

وفي الحقيقة، هناك في تاريخنا ثلاثة آثار، ذُكرت مقترنة بوصف الشريف. أولها كتاب البخاري الشريف، الذي يحتوي على أحاديث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وثانيها كتاب الشفاء الشريف الذي يحتوي على أوصاف وشمائل النبي الأكرم ﷺ، وثالثها كتاب المثنوي الشريف لمولانا جلال الدين الرومي رحمه الله.

وهذه الآثار الثلاثة العظيمة، كانت تُقرّأ للناس من قبل المشايخ المُجازين في المساجد تبركًا، على مدار التاريخ العثماني.

فعندما سُئل الشاعر يحيى كمال:

«كيف بلغ أجدادنا أبواب فيينا؟»،

٣. نور الدين طوبجي، مولانا والتصوف، ص. ١٣٩ والكتاب مؤلف باللغة التركية بعنوان Mevlana Ve Tasavvuf.



أجاب: «بأكل البرغل، وقراءة المثنوي»،

يعني أنّ هذا الوصف كان كالعلامة الفارقة لنا عبر التاريخ.

لكن علينا أن نتفكّر بشكل جيد، إلى أي درجة نليق اليوم بهذا الوصف. ولهذا يتوجب علينا أن نسأل أنفسنا إلى أي حدّ نملك من القدرة على إدراك مولانا، عبر الوقوف الصحيح والمتعمق على آثاره؟.

وهذا يوجب علينا أن نشرح صدورنا لإرشاده الذي هو وصفة علاج من عِلل الغفلة والنفسانية والغمّ.

أعزائي القُرّاء:

لقد جمعنا في هذا السِفر المتواضع كتاباتنا المنشورة في مجلتنا «الميزاب الذهبي تحت عنوان "من حكم أولياء الله" التي هي شرح وتبيان للنصائح والكلمات والحكم التي صدرت عن مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله. ونأمل أن نكون في هذا الكتاب قد قمنا بزيارة تفكرية إلى تكيّة الحِكمة في العالم الروحاني لرجل الحقِّ، وجبلنا قلوبنا بما قدّمه من نصيحة وإرشاد وتنوير. حتى تكون قلوبنا مرآه تعكس تصرفاتهم وأحوالهم الناصعة البرّاقة.

ونسأل الله عز وجل أن ييسر ويقسّم لنا، أن نسمع بآذانٍ واعية حيّة أصداء أولياء الله الباقية في فضاءاتنا الروحانية كمولانا وأمثاله، وأن نكون متّبعين حق الاتباع للدساتير العُليا التي أحيت قلوبهم.

ونرجو الله ﷻ ألا ينزع من قلوبنا محبّة من أحبّهم. وأن يرزقنا التخلُّق بأخلاق عباده الصالحين الصادقين، والسير على نهجهم والاقتداء بهم، وأن يرزقنا أن نُحشر مع زمرة الصالحين هؤلاء في الآخرة. آمين.[٤]

عثمان نوري طوبّاش

كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٧

أوسكودار/ اسطنبول

٤. أشكر السيد م .عاكف غوناي الذي بذل جهدا واضحا في إعداد هذا الكتاب، وأرجو الله ﷻ أن يجعل مساعيه في ذلك صدقة جارية له.





مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رحمه الله

١

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: «إنما يُحَصَّلُ قماش الحكمة الذي ضيعه القلب عند أهل القلوب».

مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله – ١

قال حضرة مولانا جلال الدين الرومي:

«ما بقيت الروح في هذا الجسد، فإني للقرآن العظيم خادم، وتحت نعال محمد المختار تراب»

«وما لأحد أن يزيغ بكلمة من كلماتي "عن هذا المنهج"، إلا وأنا بريء منه، ومن كلامه»

{يُعَبِّر حضرة مولانا من خلال كلماته هذه عن ارتباطه المطلق بكلام الله عز وجل، وكذلك عن محبته العميقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإنّ اعتبار الإنسان نفسه غباراً أو ترباً على سبيل النبي الأمين، والتضحية بالنفس في هذا السبيل، يفيد في أقل معانيه الارتباط الدائم مدى العمر بالنبي صلى الله عليه وسلم، واتباع نهجه وسنته في كل أمر من أمور الحياة.

هذا يعني أنّ المصدر الأساسي للفيض والخير عند مولانا هو المصدر نفسه عند أقرانه من أولياء الله، وهو القرآن والسنة. إضافة إلى أنّ مولانا هو أحد سلاطين الكلمات والمعاني، الذين عاشوا

حياتهم متعلقين بالقرآن والسنة بروابطٍ من العشق والوجد. فأولياء الله هم تلك الشخصيات الكبرى التي أدركت بأنّ الجاعلين أنفسهم ترابًا على سبيل النبي الأعظم ﷺ هم أناس ذوو مكانة عظيمة عند ربهم.

لكن عرَضَ لمولانا، كسائر السائرين على طريق الحق، بعض الغافلين الذين لم يحسنوا تلقّي وأداء كلماته فأخطأوا في نقلها، ومن خلال الفحوى الملتبسة لهذه الكلمات ابتدعوا "هوية روحانية" تقتصر على ذاته بصورة نهائية.

كما أننا لا نعدم في وقتنا الحاضر غافلين يبغون، من خلال ادعاء مناقض لكون مولانا على نهج القرآن والسنة، إظهاره في ميدان معتقدات وفلسفات مختلفة عن ذلك النهج.

فاليوم ومع الأسف، تُلَقَّن القلوب والعقول من قبل بعض الأطراف عمدًا أو سهوًا، فهمًا خاطئًا لـ مولانا ولـ فكر مولانا، مجردًا عن أصوله وفيوضاته الروحانية، والأدهى من ذلك أنهم يجعلونه متعلقًا بأهواء مولانا ونفسه.

يسعى هؤلاء إلى إظهار حضرة مولانا، أنه لم يعش حياته مع حس وهاجس التقوى، ولا الوجد الروحي المرتبط بالقرآن والسنة، ولا حتى التصوف بمعناه العام، بل يحاولون أن يعكسوا حياته كما أرادوا هم أن يروها لا كما كانت في الحقيقة.



على سبيل المثال، فإنّ "الناي" الموجودة في ديوانه المثنوي والتي تمثل الإنسان الكامل، هي في عيون هؤلاء عبارة عن واحدة من آلات الأوركسترا الموسيقية. كما أنهم سعوا إلى تحويل حقيقة "السماع/ الدوران" التي تحتل موقعاً مهمًا في قلب وفكر مولانا، والتي هي جلسة من جلسات الذكر، إلى وصلة من الرقص الفلكلوري.

بما أنّ حضرة مولانا هو واحد من دعاة الهداية والروحانية، فهو يبين للإنسانية، سبيل القرآن السامي. فجوهر الدعوة التي دعا بها البشرية إلى يوم القيامة، هو تحقق الإيمان كلذة في القلب، وأن تنهل القلوب قبسًا من القرآن، ومن حنايا فؤاد النبي محمد ﷺ}.

يقول حضرة مولانا:

«لقد تطهر كلب أصحاب الكهف من نَجسِه، وتربع على ركن أساسي من موائد السلاطين. وذلك لأنّ هذا الكلب حرس أصحاب الكهف بإخلاص.

وبذلك شرب على باب الكهف من ماء الرحمة الإلهية، بلا قِدر أو وعاء، كالعارفين».

{إنّ أهل الروحانيات، والذوات العارفة، ينقلون بكلماتهم وأحاديثهم، ما حملته قلوبهم من الوجد والعشق والمحبّة. ويعكسون لمن يخاطبون نور الأسرار الواقرة في قلوبهم. وبذلك



يقتدي بتلك الذوات الصالحة، من يأنسون بهم، ويعيشون أحوالهم، ليصبحوا مع الزمن أمثالهم، فيصلحون بصلاحهم.

وقصة أصحاب الكهف الواردة في القرآن الكريم، مثال لافت للنظر في هذا الخصوص. فقطمير رغم كونه كلبًا، ولكن لقيامه بحراسة هؤلاء المؤمنين الصادقين، انعكس عليه شيء من أحوالهم الطيبة. ورُوي دخوله الجنة لصحبته الأبرار.[5]

إن كان مجرد كلبٍ، قد بلغ هذه الدرجة لأنه قام بحراسة عباد الله الصالحين هؤلاء، ولم يفارقهم، فما بالك بالدرجة التي يمكن أن يرقى إليها مؤمن صادق من جراء ارتباطه بأهل الله بالمحبة والإخلاص. فالله تعالى يقول في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[6]

وفي مقابل ذلك حذَّرنا، ليقينا الآثار السلبية من صحبة الفاسقين والظالمين بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[7]

٥. انظر: إسماعيل حقي البرسوي، روحُ البيان، دار الفكر – بيروت، جـ ٥، ص ٢٢٦.
٦. التوبة: ١١٩.
٧. الأنعام: ٦٨.

وكذلك بقوله تعالى:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ [٨]

يعني أنّ صحبة ومحبة ومرافقة عباد الله الصالحين، تُكسِبُ آثاراً إيجابية، كما أن صحبة الفاسقين والكافرين، تُعقب آثاراً سلبية.

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ:

«**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» [٩]

ولهذا لا بُدَّ للمؤمن أن يقيّم من ناحية الإيمان، أي مكان يتخذه، في صحبة مَن، وبقرب مَن، وفي صفِّ مَن يكون.

نخلص إلى أننا، إن سلّمنا بقلوبنا لهدي النبي ﷺ، وإرشادات العباد الصالحين الذين يقومون مقام ورثته ﷺ، فإننا سنبلغ بإذن الله سرّ الحديث الشريف:

«**المَرءُ مع منْ أحبَّ**» [١٠]

وسنُلحق في الآخرة بمشيئة الله بِزُمرة الصالحين...}.

٨. النساء: ١٤٠.

٩. الترمذي، الزُهد، ٤٥/ ٢٣٧٨.

١٠. البخاري، الأدب، ٩٦/ ٦١٦٨.

يقول حضرة مولانا:

«لو كنتَ حجرًا صلباً بل حتى لو صرت رخاماً، فإنك إن وصلت إلى ذي قلب سوف تكون لؤلؤاً».

{فكما يهدف علم "السيمياء" إلى إنتاج الجواهر النفيسة من المواد التي لا قيمة لها، فإنّ الأنبياء ومن هم في مقام ورثتهم من أهل التقوى العالمين والعارفين، هم أناس امتهنوا - إن جاز التعبير- سيمياء القلوب. فكم من الأرواح البسيطة التي يمسح أصحابها وجوههم ببساتينهم القلبية بمحبة وتسليم فيصبح كل واحد منهم إنسانًا كاملاً، ببركة التربية والإرشاد الروحاني.

ويُعتبر عصر السعادة أبرز مثال على ذلك. ففيه ودّعت الإنسانية عصر الجاهلية، وتحول ذلك المجتمع الوحشي إلى مجتمع يتربع على القمة، بعد أن نهل من التربية النبوية لسيدنا محمد ﷺ.

فكما تتحول حديقة كثيرة الشوك بعد مدة من إيلاء أمرها إلى بستاني ماهر يتقن العناية بها إلى حديقة موردة تسرُّ الناظرين، كذلك تحولت تلك الصحاري ببحيرات دمائها إلى واحات للسلام بتشريف نبينا محمد ﷺ لها بدعوته. فكم من القلوب القاحلة أحياها تبسُّم وجهه المُورد وكساها خضرة، وزينها بأزهار الرحمة. فالقلوب التي كادت تسوَدُّ وتَتَفحّمُ من ظلام الكفر والشرك تحولت إلى ماسات برّاقة ببركة تبليغه وهديه ﷺ. فلقد ربّى شخصيات



ستبقى إلى يوم القيامة لامعة كالنجوم في سماء الفضيلة، ترشد الإنسانية إلى الطريق القويم.

عندما نهل مُجتمعٌ، كان إنسانيته قد تردّت في واد سحيق بسبب الجهل والظلم، الإحساسَ من روح النبي ﷺ، ارتقى عند الخلائق بالمرحمة والكرم، والنظر بعين الرحمة إلى خلق الله، إلى قمة تُزري بقمة إفرست.

فنموذج الإنسان الوحشي الخالي من الرحمة والشفقة الذي يئد البنت مفجعاً قلب أمها، زال واضمحل، وتحول إلى ملاك زاخر بالعواطف، دامع العين، مُؤثِر للغير، مُضَّحٍ، دمث الروح، رقيق الفؤاد.

فَـ عُمر صاحب القلب القاسي في الجاهلية، تحول بعد الإسلام إلى عمر رضي الله عنه ذي القلب الرقيق. وبلغ آفاق الإيثار والشعور العالي بالمسؤولية، لدرجة أن يقول:

«لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضياعًا لخشيت أن يسألني الله عنها»[١١]

و وحشي الحبشي الذي كان قبل هدايته رجلاً متوحشًا شاربًا للدماء ذا روح شيطانية، غدا بعد أن شرّفه الله بالتسليم لهدي نبينا محمد ﷺ صحابيًا دامع العين، رقيق القلب، عميق التفكُّر.

١١. انظر: ابن أبي شيبة، المصنّف، ٨/ ١٥٣.



وكم من أمثال هؤلاء، الذين كانوا قبل الهداية في براثن الصفات السيئة أمواتاً معنوياً، بلغوا حياةً أبدية، بعد ارتشاف ترياق الحياة الأبدية من منبع الهداية نفسه. فأصحبت قلوبهم ملاذات تهب الشفاء والسلام للأفئدة المتعبة. وأضحت أفئدتهم ملاجئ ملؤها الرحمة، للأيتام والأرامل والمشردين.

وبفضل تلك الإصلاحات والشروحات التي ظهرت في القلوب يقول الإمام القرافي الذي يعتبر من أهم شخصيات الفقه الإسلامي مشيراً إلى هذه الحقيقة:

«لو لم يكن لنبينا محمد ﷺ أية معجزة، لكان أصحابه الذين رباهم دليلاً كافيًا على نُبُوته».[12]

لقد قدّم الله تعالى لنا جيل الصحابة على أنه "**الجيل القدوة**" بقوله:

﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ...﴾[13]

نحن أمة نبينا محمد ﷺ التي جاءت بعده بـ ١٤٠٠ عام. لم يعد اليوم متاحاً أن نكون "الصحابة". لكن لا تزال الفرصة متاحة لأمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة ليدخلوا ضمن **﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾**.

---

١٢. القرافي، الفروق، دار السلام ٢٠٠١، ٤/ ٣٠٥ .

١٣. التوبة: ١٠٠.

فإن هاجرنا كـ أسيادنا المهاجرين، من الباطل إلى الحق، ومن الشر إلى الخير، ومن السيئة إلى الحسنة، ومن إيثار النفس إلى إيثار الغير، ومن الأنانية إلى التضحية.

ولو فعلنا كـ أسيدانا الأنصار، فبذلنا كل ما أوتينا من قوة في خدمة دين الله، وتقاسمنا بكرم كل ما أتيح لنا من إمكانيات مع المظلومين والمضطهدين من إخواننا في الدين.

عندها نكون – إن شاء الله– من المؤمنين الذين يتبعون الصحابة بإحسان، ومن **"أهل الإحسان"** الذين يتابعون السير على ذلك الطريق الذي شقّه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

علينا أن لا ننسى، أنه كما كان الصحابة طلابًا خضعوا طواعية لما تعلموه من معلمهم الخيرَ ﷺ، فإننا نحن اليوم وبعد ١٤ قرنًا، مخاطبون بالآيات والأحاديث التي خوطب بها الصحابة. نحن أمةُ وطلاب نبينا محمد ﷺ، في آخر الزمان.

ومهما كان الزمن الذي مضى طويلاً، فإنّ القرب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، شأنه شأن الكرامة عند الله، مرتبط بسر **"التقوى"**.

وبيانًا لهذا المعنى يقول سيدنا محمد ﷺ في الحديث:

«أَوْلى الناس بي المُتَّقونَ، من كانوا وحيْثُ كانُوا» [١٤]

١٤. أحمد، مسند، ٥/ ٢٣٥/ ٢٢٠٥٢؛ الهيثمي، ٩/ ٢٢.



ويبين في حديث آخر معيار القرب منه على النحو التالي:

«وإنّما أوليائي المتقون» [١٥]

فكما أدرك الصحابة الكرام التعليمات الإلهية والنبوية وطبقوها في حياتهم لينالوا شرف القرب من رسول الله ﷺ، فنحن أيضًا مخاطبون اليوم بنفس التعليمات، ومكلّفون ببذل نفس الجهد الذي بذلوه في تطبيقها.

وكما بنى الصحابة وأنشؤوا حضارة الفضيلة، يتوجب علينا نحن أيضًا أن نتأسى بهم، ونرفع من مستوى بذلنا في سبيل هذا الدين. فكل حضارة تُنشئ وتربي نوعاً خاصاً بها من الناس. فنحن اليوم في حالة تمثيل لتلك الحضارة التي وُضعت أساساتها في عصر السعادة ذاك، وامتدت واستمرت على مدى ١٤ قرنًا. وعلينا أن نُحيي أنفسنا بتلك الحضارة، وأن نُحيي الناس بها، وأن ننقلها بكامل عظمتها إلى الأجيال التي تأتي من بعدنا. فرسول الله ﷺ يقول:

«مَثلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدرى أوله خير أَم آخِرُه» [١٦]

دعونا نُفكِّر إذاً:

- كم من الجهد والحرص يمكننا بذله، لنكون قطرة الرحمة لذلك المطر المبارك؟

---

١٥. أبو داوود، الفتن، ١/ ٤٢٤٢.

١٦. الترمذي، الأدب، ٨١/ ٢٨٦٩.

- إلى أي حدّ بإمكاننا أن نكون "أمة الخير" لرسول الرحمة المبعوث رحمة للعالمين ﷺ؟
- إلى أي درجة تبدو على أحوالنا سمات "أُمة الرحمة "؟
- هل لدينا من الاستقامة ما يلائم سموا الانتماء إلى إخوان سيدنا النبي ﷺ في آخر الزمان الذين قال عنهم "اشتَقْتُ" لهم؟
- إلى أي حد يمكننا اقتفاء آثار رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في مسيرة حياتنا؟ وإن لم نكن نقتفي آثارهم، هل آمالنا المرتبطة بالنفس والدنيا، تسوقنا إلى سُبل لا تحيد ولا تنفصل عن آثارهم؟
- هل نعزي أنفسنا بمسليات، ونتخذ الغافلين في المجتمع مقياسًا لأحوالنا بدلاً من أن نتخذ رسول الله ﷺ وصحابته الكرام مقياسًا لنا؟
- كيف كان الصحابة الكرام يربّون أبناءهم؟ كيف قاموا بتربية جيلٍ من "التابعين"؟ إلى أي حد نهتم مثلهم بالتربية الروحانية لأبنائنا؟ وإلى أي حدّ نحن متمكنون من أبنائنا؟ إلى أي حد يمكننا أن نحمي أجيالنا من الآثار السلبية للتلفاز والإنترنت وأصحاب السوء؟

ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أبدًا أنه لا فرق مُطلقًا بين جاهلية الزمن الذي بُعث فيه رسول الله ﷺ وجاهلية أيامنا هذه من حيث جوهر الامتحان الإلهي. فكما كان الأقوياء في ذلك الزمان يسحقون الضعفاء بلا رحمة، وكما كانت القوى الظالمة تُعَدُّ دائماً



صاحبة الحق وتُرتكب الكثير من الجرائم بلا اكتراث، فإنّ هذه الأمور – مع الأسف– تحدث أيضًا في وقتنا الراهن.

في ذلك الزمان، كانت الفتاة الصغيرة تُخلع من قلب أمها وتُدس حية في التراب، على أنه تبرئة لشرفها أو أنها تجلب العار لعائلتها، أو خشية على رزقها، أما اليوم فإنّ جزاري عمليات الإجهاض الذين يقومون بتقطيع الطفل وهو في رحم أمه دون أن يرى نور الحياة، يرتكبون جرمًا أفظع من ذلك الجرم. وفي هذا يقول الحق ﷻ من خلال بيان مشهدٍ مهيبٍ من مشاهد محكمة الآخرة:

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [17]

إنّ جزاري الإجهاض في أيامنا هذه ينالهم وعيد بحساب عسير وعذاب أليم أمام الوعيد الإلهي هذا.

وينبغي أن يُسأل هؤلاء عديمو الضمائر الذين يقومون بتقديم أولادهم لجزاري الإجهاض، تبعًا لأهواء النفس ودون عذر مشروع، السؤالَ التالي:

أيُّ حقٍ لك في أخذ الروح التي وهبها الله ! وهل أنت عالم بالغيب؟! هل لديك علم بما سيأتي به المستقبل؟! هذا الولد الذي أزهقت روحه، لعلّه غدًا يكون لك سندًا وموئلاً وملجأً. ويحميك ويعتني بك ويكون عونًا لك حينما لا يكون لك أحد حولك...

١٧. التكوير: ٨-٩.



ونخلص إلى أنّ أي إنسان لا يتربى على المعايير الإلهية فهو، في أي عصر كان، يقع تحت قوله تعالى: "ظَلُوم و جَهول" أي شديد الظلم وشديد الجهل.[١٨] وإنّ أي عصر يعيشُ في منأى عن الله ﷻ ورسوله ﷺ هو عصر جاهلية أساسًا. وإن العصور كلها والتي لم تُصلح بالهدي الإلهي والنبوي، هي سواءٌ في وحشيتها...

فتغيُّر الزمان والمكان والأنماط ومظاهر الحياة وظروفها لا يُغَيّر من طبيعة الإنسان. فهل من فرق بين إنسان الجاهلية اليوم الذي يعيش عصر السرعة والرفاهية، وإنسان الجاهلية الأولى البدوي، سوى الفرق في خزانة ملابسه؟

ما يمكن أن نقوله في إطار كل هذه الحقائق:

مثلما كان سيدنا النبي ﷺ وسيلة في الماضي لإصلاح مُجتمعٍ مفرط الجاهلية، وكما حوّل عصره إلى عصر السعادة، فإنّ ما من شأنه اليوم أيضًا أن يبلّغ البشرية السلام، وينجو بها، هو نَفَسُ الرحمة التي هو مصدرها عليه الصلاة والسلام.

ولهذا السبب فإنّ البشرية كما كانت محتاجة له ﷺ في أمسها وحاضرها، فإنها ستبقى محتاجة له إلى يوم القيامة. فمعاييره التي تبعث الحياة، ليست مخصصة لعصره فقط، بل هي وصفة السلام الفريد لكل الأجيال والعصور إلى قيام الساعة.

١٨. انظر: سورة الاحزاب، الآية ٧٢ .



لهذا، عُرِضت عليه الجنة والنار، في ليلة المعراج التي جمعت الماضي بالحاضر والمستقبل. وقد رأى عليه الصلاة والسلام ما سيحل بأُمته من أحوالٍ وبلاءٍ إلى قيام الساعة، وأخبر بغالب ما عُرض عليه في "أحاديث الفِتن" مشهدًا مشهداً.

واليوم، تقوم فئة ضالة تُدعى "التاريخانية" بالتطاول عبر حصرها تعليمات نبينا وسيدنا في الدنيا والآخرة في حدود ضيقة تقتصر على القرن السابع الميلادي. وتدعي مُضي زمان كثير من آيات الأحكام – حاشاها– وتقول إنها لم تعد تناسب ظروف زمننا هذا. وتسعى في هذا السياق، على سبيل المثال، إلى تغيير أحكام "الميراث" في القرآن الكريم. وبذلك تسعى إلى تعطيل بعض الأحكام الإلهية.

أمّا إحدى الفئات الضالة الأُخرى فتُحيل نبينا ﷺ إلى التقاعد – حاشاه– بقولها: «لو جاء رسول الله في يومنا هذا فإننا سنقبل يده وقدمه، لكن هذا الزمان هو زمننا، ونحن لا نحيد عمّا انتهجناه».

مما لا شك فيه، فإنّ دين الإسلام بأحكامه الجارية إلى قيام الساعة مُنزّهٌ عن ضلالات المُحَرِّفين. وإنه الدين القّيم التام المكتمل عند الله تعالى.

أمّا هؤلاء المنحرفون الضالون، فهم أهل فساد يسعون إلى بثّ الفتن في أمة تعاني أصلاً من الشتات، ويجتهدون في طمس روحانياتها ومعتقداتها. ونحن كمسلمين، علينا أن نكون في



تصرفاتنا على أعلى درجات الحذر والبصيرة فيما يخصُّ حماية أنفسنا وذرياتنا وأجيالنا القادمة من هذا النوع من الفتن.

هذا وقد وجّه سيدنا رسول الله ﷺ إلى واحد من أحب صحابته إليه، وهو عبد الله بن عمر، وكذلك إلى كل من يأتي من بعده من أمته إلى قيام الساعة، التحذير التالي:

«يا ابن عمر دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا» [١٩]}.

نسأل الله تعالى أن يثبِّتَ أقدامنا على الصراطِ المُسْتَقيم. وأن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه وأن يرينا الباطلَ باطلاً ويرزقنا اجتنابه. وأن لا يبعدنا عن نهج وسبيل من أحبَّ، وأن يحشرنا يوم القيامة مع من أحبَّ.

آمين !..



١٩. الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، جـ١، ص ١٢١.





مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رحمه الله

٢

مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ٢

يقول حضرة مولانا جلال الدين الرومي:

«كل الناس كانت تدرك أن سيدنا أحمد كان يتربع على قمم العقل والعرفان، لكن لم يتمكن كلّ إدراك من تَلقي ما أُوحي إليهِ من الهَدي الإلهي».

«فالأحوال التي تلائم روح الوحي والعلم اللّدُنّي، شاهقة العُلوِ، فائقةُ الرِفعةِ. لا يمكن أن يدركها العقل. لأنّ تلك الحقائق الفائقة هي أبعد من عالم المعاني. ويبقى العقل والمنطق عاجزًا عن بلوغها».

«إنّ العقل الإنساني أحياناً يرى الأحوال التي تلائم روح الوحي ضربًا من ضروب الجنون. وفي بعض الأحيان يصيبه منها دهشة وذهول. لأنّ تلك الحقائق الرفيعة تتطلب ارتقاء العقل إلى مستواها، أو بالأحرى تتطلب خلق تناسقٍ بين العقل والقلب ».

«فالحقائق اللَّدُنيّة التي تَجلّت للخِضرِ، شَقّتْ حتى على عقل موسى وهو كليم الله. وفي ظل هذه الحال، يا أيها الإنسان الذي يعيش عقلانيًا، دعنا نرى ما الذي يجديه نفعًا عقلُ الفأرة».

يقول مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العقل ضروري؛ ولكن يجب للإنسان أن يتمتع بعقل يدرك أن العقل محدود».

«لا يغب عن ذهنك، أنه إن هَمَّتْ ذرة أن تزن نفسها بِجَبَلٍ فإن ميزانها سيصبح محطما بسبب هذا الجبل».

«قدِّم العقل قرباناً عند أعتاب المصطفى وقل: "حسبي الله"».

{الإيمان يتأتّى بالتصديق باليقين القلبي بوجود الله وتوحيده وما أوحى به من الحق، وكذلك بالإقرار اللساني بكل ذلك، فالإيمان ليس إدراكًا عقليًا، بل هو قبولٌ قلبي بالدرجة الأولى.

والعلامة الفارقة للمؤمن هي تصديقه بالقلب دون شك أو ريب، وبالتسليم المطلق للحقائق الغيبية التي لا تدركها الأبصارُ، وتقصر عنها العقول.

والعقل هو الشرط الأول من شروط التكليف الديني. وقد أمر الله تعالى عباده باستخدام عقولهم في آيات كثيرة من كتابه الكريم. ومن هذا المنطلق، فإنّ العقل هو نعمة وإحسان إلهي قيّم للغاية. لكن العقل أيضاً ككثير من النعم هو سلاحٌ ذو حدّين، يمكن استخدامه في الخير وكذلك في الشر.

هذا وقد عصا إبليس أمر ربه بتحكيم عقله وفقًا لهواه، وحلّت عليه اللعنة الأبدية. ولهذا فإنّ تربية عقل الإنسان بالوحي شرطٌ لتأدية العقل وظيفة المرشد الذي يأخذ صاحبه نحو الحق وصوب الخير.

فالعقل لا يملك قدرة مطلقة في بلوغ الحقيقة. فكما للعين حدود في إبصارها، وللأذن حدود في سمعها، فكذلك العقل له



حدود. وإمكانية إدراك المحدود لما لا حدود له بالكلية هو أمر مستحيل. فمن المستحيل أن تسع كأس صغيرة ماء المحيط الهائل.

لهذاـ فإنّ المؤمن الحق، هو من بلغ سجية التسليم قلباً لله ورسوله ﷺ فيما يخص الأمور التي تتعلق بالعالم الذي يتجاوز إدراكه حدود العقل، وبشكل خاص الأمور التي ندعوها بـ"الغيب". والحدث التالي هو ذروة الأمثلة على هذه الحقيقة.

عندما همّ فخر الكائنات ﷺ أن يخبر مشركي قريش بحادثة الإسراء والمعراج قال ﷺ:

«يا جبريل إن قومي لا يصدقونني»

قال جبريل عليه السلام :

«يصدقك أبو بكر وهو الصدّيق»[٢٠]

عندما سمع المشركون بحادثة الإسراء والمعراج، ظنوا أنهم، من خلال هذه المعجزة التي تتجاوز حدود استيعاب الموازين العقلية، قد امتلكوا ورقة رابحة كبيرة لصدِّ المسلمين عن دينهم فهرعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه، وقالوا له ساخرين:

«يقول صاحبك إنه ذهب إلى المسجد الأقصى خلال ليلة واحدة ومنه عرَج إلى السماء وعاد إلى مكة قبل شروق الشمس، فما تقول في هذا»

٢٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ١/ ٢١٥.



قال أبو بكر رضي الله عنه: «إن قالها فقد صدق، فلا ينبغي ولا يمكن أن يكذب، وأنا أصدقه وأسلّم بكل ما يأتي به»

اندهش المشركون وقالوا:

«أذاً أنت تصدّقُه، وتسلّم بأنه ذهب إلى بيت المقدس ورجع في نفس الليلة»

قال أبو بكر رضي الله عنه: «وما الغرابة في ذلك، إني أصدّقهُ فيما هو أبعد من هذا، أصدّقه بخبر السماء يأتيه في غدوه ورَوْحِه "أفلا يستطيع من يأتي عبده بخبر السماء أن يبلغه تلك الأماكن إن شاء؟"»

ثم ذهب أبوبكر بعدها إلى رسول الله ﷺ وكان في الكعبة. وسمع الأخبار من رسول الله ﷺ وقال:

«صَدقتَ يَاْ رَسُولَ الله»

فسرَّ رسول الله ﷺ بهذه الدرجة من التصديق وقال:

«يا أبا بكر، أنتَ الصِدِّيق».[٢١]

إنّ ثبات قلب الصديق في ذلك الموقف، وتصديقه لرسول الله دون شك أو ريب هو بلا شك دليلٌ على قوة الإيمان الذي وقر في قلبه. وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه فيه:

«كنت كالجبل لا تحرّكه العواصف، ولا تزيله الرّواجف».[٢٢]

---

٢١. انظر: ابن هشام، ٢/ ٥.

٢٢. أبو نعيم، معرفة الصحابة، ١/ ٢٦٤.

ونحن كمؤمنين نواجه أحيانًا في هذا الزمان الذي كثُرَ فيه الهجوم على ديننا، امتحانات في الصدق والإخلاص مشابهة لهذا الامتحان. فنحن نصادف بكثرة هذه الأيام المنحرفين الضالين المتسترين بمظهر "رجل العلم"، الذين يتبنون أفكار المستشرقين السقيمة، وتتداولها ألسنتهم، لتضليل وتشتيت أذهان بعض المسلمين الذين لا يملكون القدر الكافي من العلم والفقه.

بعض هؤلاء هم من الأشقياء الذين تجرأوا على استصغار القرآن والسنة، عندما تعلّموا بعض الأفكار الفلسفية والأفكار المنطقية. وبعضهم من أهل التضليل الذين غلبتهم أنفسهم وأوقعتهم في مصائد الشهوة والثروة والشهرة، ففهموا حقائق الدين بما يتناسب مع المنافع الدنيوية، وكذا أفهموها الناس. وبعضهم من المحرومين الذين سعوا إلى أن يدفع ديننا "الإسلام" فاتورة ضعف إدراكهم، وأمراض قلوبهم.

وقد نادى حضرة مولانا هذا النوع من الغافلين منذ قرون بالنداء التالي:

«إن لم يقدر أنفك على تنسم العبير، فعلى الأقل لا تلقِ الذنب على الورود»

إنّ ما ينصح به فضيلته هو التالي:

«إن لم تستطع بلوغ نَفحاتِ القرآن والسنة التي هي إسقاطه على أرض الواقع، تلك النفحات التي تزخر بالحقائق والحكم الأبدية،



فعلى الأقل لا يوقعك ذلك في اضطراب يقودك إلى البحث عن النقص فيهما، بل عليك أن تبحث عن النقص في قلبك».

فالحقيقة إنّ تقويم من يدرك جهله هو أمر سهل. أما الأمر الصعب فهو تقويم الحمقى البلهاء المتغطرسين، والمتحذلقين الذين يعيشون هوس "أنا أعلم"، الظانين أنفسهم من أصحاب العقول الكبيرة أو العلماء. فحضرة مولانا يقول:

«**البلاءُ أكثرُه يحلُّ بالأنبياء، لأنّ تقويم الجاهلين بلاءٌ بحدِّ ذاته**».

يقول سيدنا النبي ﷺ في حديث يُخبر فيه عن بعض الفتن التي ستحدث عند اقتراب الساعة:

«**... ثم يأتي من بعد ذلك زمان يجادل المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما يقول**» [٢٣]

هذا، وإن وجود طائفة من التاريخانيين والحداثيين الأكاديميين المنحرفين عن الاستقامة في كليات الإلهيات، الذين يفسرون القرآن والسنة بعقولهم القاصرة، وفق أهوائهم الدنيوية رغم عيشهم بعيداً عن التقوى، والذين يحاولون التعديل على الدين، والذين يسعون إلى إسداء النصح للمؤمنين وأهل الاستقامة سائقين معتقدات خاطئة عن الله تعالى؛ و الكثرة الهائلة للتكفيريين الذين يدخلون في سجال مع المسلمين، وكأنهم هم من يمثل الإسلام

٢٣. الحاكم، المستدرك، ٤، ٥٠٤/ ٨٤١٢ .



ويتكلم باسمه، وكذلك وجود بعض المتصوفين الذين يلحقون الضعف بطريق الحق المستقيم، في أيامنا هذه، يؤيد الكلام النبوي الوارد في هذا الحديث.

إنّ واجب المسلم بدل أن يقيم اعتبارًا لهؤلاء الدجالين، أن يجدّدَ إيمانه بالنبي الذي أخبر عن ظهورهم قبل ١٤ قرنًا، وأن يرفع من سوية الشكر لهذا النبي والإخلاص له ﷺ.

وفي الحقيقة، فإنّ بعض من يعانون مرضاً في قلوبهم في موضوع التسليم لله تعالى ورسوله الكريم في أيامنا هذه، لا يستطيعون أن يتخلّصوا من التخبط في مستنقع الشك والشبهة الذي أوقعتهم فيه بعض الحقائق الإلهية التي لم تستوعبها عقولهم ولم تتقبلها أهواؤهم. وعندما تُوَافقُ وساوس الشيطان شكوكهم وريبتهم هذه، فإنّ ذلك يسوقهم أن يمحصّوا المصادر الأساسية للإسلام بعقولهم الناقصة تلك.

حيث إنّ الإسلام ليس أمرًا يمكننا أن نأخذ منه ما يروق لعقولنا، ونترك منه ما لا يروق لها. فالإسلام وحدة كلية. ولا يمكن أن يكون مؤمنًا من لا يقبل الإسلام ويصدّق به بشكل كلّي. فالإيمان لا يقبل التجزئة، أي إنه لا يُقسم إلى أقسام أو أجزاء. فهو لا يكون فعّالاً إلا بشكله الكلّي. فليس هناك فرق أبدًا في العاقبة التي يتردّى فيها من ينكر القرآن، سواء أنكره كله أو أنكر حكماً واحداً فيه. فكلا الأمرين مُخرجٌ للشخص عن إيمانه.



ومن هذا المنطلق، فإنّ المسلم هو من يقبل بأسس الإسلام كلها، ويأتمر بكل أوامر الله ورسوله دون أن يجد في نفسه أي حَرج في ذلك، بل على العكس، يطيع هذه الأوامر بكل تسليم وامتنان.

ولهذا، فإنّ إبداء ذلك "**الصِدق**" الذي توطّد عند سيدنا أبي بكر الصديق وصار رمزًا له، أي إبداء التبعية والتسليم والإخلاص لله ورسوله الذي لا يتزعزع، وكذلك الدفاع المتين الذي لا هوادة فيه عن الايمان والقرآن والسنة وعن مؤسسات الحضارة الإسلامية والشخصيات الرمزية التي نَشّأتها تلك الحضارة، والتمسك بكل ذلك بقوة، هو خير ما نقابل به في أيامنا هذه لصوص المقدسات الذين يمسون الإيمان ويهدفون إلى التشكيك في الإسلام من خلال خوضهم في كبار الإسلام ومذاهبه وبخاصة السنة.

إنّ كل اعتداء وكل هجوم من هذه التهجمات المستمرة إلى قيام الساعة على قيم الإسلام ومبادئه، يُشكل "امتحانًا إيمانيًا". وينبغي تجاوز هذه الابتلاءات والامتحانات، من خلال الاحتماء بدرع التسليم للحق جلّ وعلا، ومن خلال عيش الإيمان عِشقًا، وذلك يقتضي الخروج من كل امتحان بزيادة في القوة.

بالإضافة إلى أنّ المؤمنين الذين يواجهون مثل هذا النوع من أفكار الباطل ينبغي أن يتوخوا الحذر إلى أقصى درجاته. لأنّ الغواص الماهر، يمكن أن يرى مناظر خلابة بغوصه في المياه العميقة دون وجل. وكذلك المؤمن الرفيع المتمكن، طالما أن



لفرجاره طرفًا راسخًا في الشريعة، فلا يُحظر عليه شيء في تجواله بالطرف الأخرى في عالم الآراء الأخرى للفرق الاثنين والسبعين. إنما المحظور هو أن يغوص في المياه العميقة من لا يتقن الغوص.

يعني أنه من الأمور الشديدة الخطورة أن يظن الإنسان الذي لم يستوعب إرث القرآن والسنة بالشكل اللائق، أنَّ أفكار المستشرقين الباطلة المُزينة بالألاعيب المنطقية والجدلية حين يخاطَبُ بها أنها هي الحق، أو على الأقل يصيبه الإعجاب بالباطل.

كما أنّ الناطقين بين أظهرنا باسم المستشرقين، يقومون عند طرح آرائهم ومن أجل أن يتمكنوا من خلق القبول لأفكارهم الباطلة بتقديم الفكرة المغلوطة الواحدة في واجهة مزينة بعشرٍ من الأفكار الصحيحة، وبسبب هذه التقنية يلعبون بعقائد الناس ذوي المعلومات الإسلامية الشحيحة أو المحرومين من العمق في التقوى.

لذلك فعلى أي مؤمن وقعت في قلبه شبهة بسبب نقصٍ في علمه وفقهه أن يسأل ويستشير أهل الذكر وأرباب العلم وأن يتعلم منهم ما هو الصحيح في مسألته، فيقضي على جرثومة الشبهة قبل أن تكبر وتتكاثر في داخله. وعليه بشكل دائم أن يقوي روحانياته بالأُنس بالمؤمنين الصادقين الصالحين.

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أبدًا، أنّ الفلسفات السقيمة وأباطيل العقول المريضة، لن تنجي العبد في آخر أنفاسه وفي قبره وفي القيامة وفي المحشر وعلى الميزان والصراط. لكن المحبة العميقة



للّه ولحبيبه محمد ﷺ، والتسليم الروحي والطاعة المطلقة الخالصة لهما، ستشكل رأس المال الروحاني الوحيد، للسعادة الأبدية.

ومن جهة أخرى، فالحقيقة أنّ "الشجرة المثمرة دائماً ما تُضرب بالحجارة". وأنّ اللص لا يسعى لسرقة دكان بائع الخردة، بل يتوجه إلى دكان الصائغ. لهذا، فلا ينبغي في عالمنا اليوم الذي لم يبق فيه للديانات الباطلة والمحرّفة شيء تقدمه للإنسانية الاستغراب من ازدياد التهجم على الإسلام، الدين الأوحد عند الله تعالى.

لكن هذه التهجمات، لا ينبغي أن تكون وسيلة لإضعاف ارتباطنا بديننا، بل على العكس ينبغي أن تكون وسيلة لزيادة تقديرنا لقيمته، وزيادة تمسكنا بديننا الحنيف بحب وتسليم أكبر.

فالصحابة الذين قُدّموا على أنهم جيل القدوة لنا، كانوا يرتبطون بحب كبير بالله ورسوله، لدرجة أنهم كانوا يبادرون أوامر الله ورسوله بـ ﴿**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾[٢٤]، ويطبقونها على حياتهم، دون أن يبالوا بلوم اللائم، ودون أن يصغوا إلى هرطقات المشركين والكافرين، حتى دون أن يروا موجبًا للسؤال عن الحكمة من الأمر في كثير من الأحيان، وفي غمرة من البهجة والانسجام.

لقد بلغت قلوبهم السكينة من خلال صهر كل احتياجاتهم الروحانية، وما يحاك في أنفسهم من تساؤلات، في بوتقة التسليم

٢٤. البقرة: ٢٨٥.

لله ورسوله. كما أنهم عرفوا النبي ﷺ عن قرب وكانوا عاشقين له. ولهذا السبب كانوا يفضلون حيازة مكانةٍ ولو صغيرة في قلبه على سعادة الدنيا بأسرها، وكانت أرواحهم تتوق لبذل كل تضحية في سبيل ذلك. وفي غمرة هذه المشاعر الإيمانية المتقدة كانوا يقولون:

«فداك نفسي ومالي وكل ما أملك يا رسول الله، مُرني يا رسول الله».

كان سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما واحداً من عشاق سيدنا النبي ﷺ فقد نذر نفسه منذ الطفولة لـ تعقُّب حياة النبي عليه الصلاة والسلام خطوة خطوة، فعاش عاشقًا دائبًا على تطبيق كل ما كان يفعله النبي عليه الصلاة والسلام - سواء عَلِمَ الحكمة منه أم لم يعلم-.

فعلى سبيل المثال، رأى عبد الله نبينا عليه الصلاة والسلام يشرب من ماء بئر، فكان يذهب من حين لآخر إلى تلك البئر ويشرب الماء منها. ورآه أيضًا قد استظل بظل شجرة، فكان يذهب من حين لآخر ليستظل بظل الشجرة نفسها. كذلك رأى النبي عليه الصلاة والسلام جلس مسندًا ظهره إلى صخرة، فذهب وأسند ظهره إلى تلك الصخرة وجلس عندها حينًا من الزمان. كما أنّ هذا الصحابي المبارك يقول في هذا الصدد معبرًا عن متعة اتباع النبي ﷺ مايلي:

«إن الله بعث إلينا محمدا ﷺ ولا نعلم شيئا، فإنما نفعل كما رأينا محمدا ﷺ يفعل»[٢٥]

٢٥. ابن ماجه، الإقامة، ٧٣ / ١٠٦٦؛ أحمد، مسند، ٥٣٣٣.



لقد كان ساداتنا من الصحابة الكرام، يتابعون بدقة عالية وحس مرهف كل إيماءة من إيماءات النبي ﷺ وإشاراته، بالقدر الذي كانوا يهتمون فيه بأوامره اللفظية. وعلى هذا كان من الكافي بالنسبة لهم أن يروا سيدنا رسول الله ﷺ على عمل صالح ولو لمرة واحدة ليتبعوه. ولو لم يؤمروا بذلك العمل، وقد أمضوا أعمارهم سعيًا لتطبيق تلك السنة الحسنة.

وفي هذا يقول أنس رضي الله عنه:

«رأيتُ النبي ﷺ يصلي الضحى ست ركعات، فَما تركتُهنَّ بَعدُ».

ويقول الحسن البصري الذي روى عن أنس قوله هذا: «وما تركتُهنّ بعدُ».[٢٦]

وكم هي معبّرة تلك الكلمات لـ سيدنا علي رضي الله عنه الذي كان واحدًا من أرفع الشخصيات ارتباطًا برابط العشق برسول الله ﷺ:

«قد رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا، وقعد فقعدنا» [٢٧]

وذلك لأنّ هؤلاء الصحابة الأطهار كانوا يعلمون تمام العلم أنّ ما يفعله النبي ﷺ هو ما أمر الله به أن يُفْعَل. وأنّ الله تعالى هو من علّمهُ وربّاهُ. وأنه لم يكن ينطق عن هواه وإنما يبلغ ما أوحاه الله

٢٦. انظر: الطبراني، المعجم الأوسط، جـ٢ ص٦٨، رقم ١٢٧٦.

٢٧. أحمد، مسند، جـ٢، ٦٤/ ٦٣١.

إليه. وقد حثّ الله تعالى في كثير من آيات كتابه الكريم على هذه الطاعة:

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ...﴾[٢٨]

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٩]

﴿... ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾[٣٠]

لهذا كان الصحابة الكرام يطيعون أوامر النبي ﷺ دون أن يمحصّوها في الحدود الضيّقة للعقل، وكانوا يأتمرون بتلك الأوامر سواءً علمُوا الحكمة منها أم لم يعلموها. لأنّ هذه الأوامر كان يتلقاها ﷺ من الله الذي خلق العقول. لهذا كان اتِّبَاعُ رسول الله ﷺ، وهو أسلَمُ البشرية عقلاً، هو السبيل الأسلم لابن آدم الذي يعاني عقله من عِلَلِ الوهم والخيال. لهذا ينبغي علينا هذه الأيام أن نكون على أعلى درجات الحذر وبشكل خاص في مواجهة الفئة التي تُظهر نفسها أنها على حق وتقول إنّ "القرآن يكفينا"، مُحاوِلة بذلك التجريح في السنَّة السَنيّة التي تمّثل التفسير الحيَّ للقرآن الكريم.

---

٢٨. النساء: ٨٠.

٢٩. آل عمران: ٣١.

٣٠. الحشر: ٧.

يقول أيوب السختياني أحد أعلام المحدثين من التابعين:

«إذا حدّثت الرجل بِسُنة، فقال: دعنا من هذا وأجِبنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال».[31]

قَالَ الإمام الأَوْزَاعِيُّ أحد أعلام الفقهاء الأوائل تعقيبًا على هذا الكلام:

«إِنَّ السُّنَّةَ جَاءَتْ قَاضِيَةً عَلَى الْكِتَابِ، وَلَمْ يَجِئِ الْكِتَابُ قَاضِيًا عَلَى السُّنَّةِ».

في الحقيقة إن معرفة كيفية الامتثال للقرآن وتطبيقه في الحياة لا يمكن القيام به دون الرجوع إلى السنة. مثلاً، إنّ أكل لحمِ المَيْتةِ من الحرام. لكننا نعلم من السنة أنّ أكل السمكة التي تموت ذاتياً بعد اصطيادها هو أمرٌ حلال. وفي القرآن الكريم أمرٌ بأداء صلاة الجمعة. لكن تحديد وقتها وكيفية صلاتها نتعلمه من السنّة.

أتى رجلٌ عمرانَ بن حصين رضي الله عنه الذي عيَّنه سيدنا عثمان رضي الله عنه أثناء خلافته واليًا على البصرة، وقال له:

يا أبا نجيد، إنكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلا في القرآن، فغضب عمران، وقال للرجل:

«أوجدتم في كل أربعين درهما درهما، ومن كل كذا وكذا شاة شاة، ومن كل كذا وكذا بعيرا كذا وكذا، أوجدتم هذا في القرآن؟»

٣١. الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦٥؛ خطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية ص ١٦.



قال: لا، قال: «فعن من أخذتم هذا؟ أخذتموه عنا، وأخذناه عن نبي الله ﷺ»، وذكر أشياء نحو هذا.[٣٢]

وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [٣٣]

لقد فُسِّر القرآن الكريم على مدى ٢٣ سنة من حياة النبي ﷺ بعد بعثته. لذلك ليس من الممكن فهم القرآن الكريم ولا عيشه عمليًّا، دون استقاء قَبسٍ من حنايا قلب النبي ﷺ، ودون اتباع سنته، والتخلُّقِ بأخلاقه. يقول رسول الله ﷺ في الحديث:

«أيحسب أحدكم متكئا على أريكته، قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد وعظت، وأمرت، ونهيت، عن أشياء إنها لمثل القرآن، أو أكثر...» [٣٤]

«ألا إني أوتيت الكتاب، ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه...» [٣٥]

---

٣٢. أبو داوود، الزكاة، ٢/ ١٥٦١؛ الطبراني، المُعجَمُ الكبير، ١٨/ ٢١٩.

٣٣. الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

٣٤. أبو داوود، الخراج، ٣١-٣٣/ ٣٠٥٠.

٣٥. أبو داوود، السنّة، ٥/ ٤٦٠٤؛ أحمد، مسند، ٤/ ١٣١.

نخلُص إلى أننا قد بلغنا تلك الأيام التي أخبر عنها سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، والتي يُراد فيها الطعن بالسُنة السنيّة والتشكيك بها، ومن أجل النجاة بأنفسنا، وبمن سيأتي بعدنا من الأجيال من فتن هذه الأزمنة، علينا بالحرص على تعلم ديننا بالشكل الصحيح.

وعلينا أن لا ننسى أنّ سنة نبينا عليه الصلاة والسلام هو الهادي العظيم الذي بين لنا كيفية العمل بالقرآن. لذلك يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أبدًا أنّ الاعتراضات التي تورد على السنة، تطال القرآن أيضًا، وبالتالي فإنها ستطال بالنتيجة الإسلام والله ﷻ.

يقول عبد الله الديلمي وهو من كبار علماء التابعين:

«بلغني أن أول ذهاب الدين ترك السنة، يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة»[٣٦] }.

نسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا جميعًا، وأن يُلحقنا بعباده الصالحين الذين عاشوا متوجهين نحو رضى الله من خلال تمسكهم بقوة بالأمانتين الكُبريين لرسول الله ﷺ القرآن والسنة والذود عنهما.

آمين!...



٣٦. الدارمي، المقدمة ١٦/ ٩٨.





مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله

٣

مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله – ٣

يقول حضرة مولانا:

«هل زرعتَ يومًا قمحًا فوجدتهُ نبَتَ شعيرًا»

{سنرى في الآخرة نِتاج ما قدّمناه في هذه الدنيا. فلن نجني في حصاد الآخرة غدًا إلا محصول ما نزرعه في الدنيا اليوم.

ومن المؤكد أنّ ليلاً دنيويًا حالك الظلام ماضٍ، فالعيش في غمرة من الهوى وشتى أنواع الظلم والطغيان والمتع الدنيوية والحرِمان من نور الإيمان ومن العبادة في غمرة من الفيض الروحاني، لن يأتي أبدًا بصبحٍ أبدي. وكذلك، فإنّ تَوَرُّد أهواء الدنيا وزهوها، والضحكات الغافلة، مُنبئة بشحوب العاقبة، وبحطام جهنم.

لا يمكن لشمس السعادة الأبدية أن تشرق إلا من الآفاق الروحانية لمن استطاعوا أن يقضوا أعمارهم على نهج الاستقامة، وفي نور من الهدي الإلهي، وتمكنوا من الارتحال إلى الآخرة بنفوس مطمئنة، وقلوب سليمة ووجوه بيضاءَ نقية}.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: «ما ذا فيك وما ذا كسبت؟ أي نوع من اللآلي أخرجته من قعر البحار؟ فهذا كله سيتحدد يوم وفاتك».

يقول حضرة مولانا:

«إن تحرّي شيء في مكان لا يُوجد فيه، يعني عدمَ تحرّيه»

{إنّ الدنيا هي سوق نشتري فيها الآخرة. لكن هذه السوق هي ساحة امتحان وابتلاء. فهي مُزوّدةٌ بألف فتنة وفتنة من شأنها أن تُنسي الإنسان الغاية من خلقه في هذه الأرض.

ولهذا ينبغي أن لا يغيب أبدًا عن ذهن الإنسان أنّ الحياة الأساسية هي حياة الآخرة، وأن لا ينسى ما هي الأمور التي ينبغي عليه أن يبحث عنها و يتحرّاها في سوق الدنيا.

كما أنّ كل سلعة تنفرد بسوق خاص لها في دنيا الاختبار هذه. لذلك فعلى العبد الذي يبحث عن السعادة أن يتجنب التجوال في سوق الشقاء، وأن يبتعد عن النظر في واجهاته التي تعرض بضائع الأهواء والبضائع الشيطانية.

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ...﴾ [٣٧]

بمقتضى هذه الآية الكريمة، فواجبنا الأهم هو تحصيل رضا الله تعالى في سوق الدنيا هذه. والسبيل الوحيد لذلك يمر من بيئة النفحات المنيرة للقرآن الكريم والسنة السنية. لأننا لا نستطيع أن نبلغ النور الإلهي الذي ينير لنا طريق النجاة الأبدية والجنة و المستراح إلا إذا تمكنا من التوجّه إلى هذه الوجهة.

٣٧. التوبة:١١١.

وعلى النقيض من ذلك، فإنّ الإعراض عن النور الإلهي، وطلب المدد من أوهام النفس، والآمال الشيطانية، والفلسفات البشرية السقيمة، أو الديانات المحرّفة، فإنها سبيل العبد لإهلاك نفسه بيديه من خلال التردي في هاوية عذاب أليم.

إنّ الإنسان الغافل المُعْرِضَ عن حقيقة أن العيش هو عيش الآخرة، يدأب على التمسك بقوة بالنِعَم العابرة في دار الدنيا التي هو فيها عابر سبيل. ويظن أنّ ما أوتي من الفانيات، كالمال والملك من شأنه أن يحميه ويحفظه، وحتى أن يبقيه في هذه الدنيا إلى ما لانهاية. ويقول أحد العارفين للتائهين في غفلة مثل هذه ما يلي:

«لا تطلب من الدنيا البقاء الأبدي! ففاقد الشيء لا يعطيه»}.

يقول حضرة مولانا:

«يا أيها البلبل إلى متى ستبقى تئن من الشتاء المظلم؟ يا أيها البلبل أتليق الشكاية من الجفاء على الدوام؟ إن كان قلبك مُعلّقا بالمحبوب حقًا فافتح عينيك واشكر! تحدث عن الوفاء، ودعِ الأشواك، تحدث عن الوردة ودعك من شأن ساقها وجذورها، انظر إلى ذاتك! لِم أنت منشغل بذاك العالم الفاني إلى هذا الحد! أم أنك لا تروم بلوغ ما وراء الآفاق».

{يقدم حضرة مولانا من خلال هذه الكلمات درسًا في آداب محبة الله تعالى والعشق الإلهي الخالص للعباد المحبين لله



سبحانه وتعالى، مستخدمًا شخصية البلبل العاشق للوردة الذي لا يتوقف عن الأنين. وعليه فإنّ المؤمن المحبَّ لربِّه لا بد أن يخضع بوسائل عديدة لاختبارٍ يقيس الإخلاص في محبته هذه. تماماً، كما يُضرَب الذهب بحجر المحك لمعرفة أصالته من زيفه...

على المؤمن أن يدرك ويعي أنّ الصعوبات والعوائق التي تواجهه في عباداته وأعماله ومساعيه التي يبتغي بها نيل رضا الله، هي جزء من امتحان الصدق والإخلاص في محبته لله تعالى.

وعلى المؤمن أن لا ينسى أن حُكم الله في قوله:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٣٨]

يجري عليه في كل لحظة من حياته. فعليه بدلاً من الشكاية وتمنِّي حياة تخلو من هذه المِحن، أن يسعى لمواجهة هذه العوائق بطيب خاطر، وأن يثبت أنه في حالة دائمة من التسليم والإخلاص لربه.

ومن هذا المنطلق، كان التصوّف "**فنَّ الذهول عن الشكوى**"، والسعيِّ لبلوغ الرضا الإلهي من خلال الرضا بقدر الله خيرهِ و شرّهِ.

لأنّ المومن الحق هو من يؤمن بأنّ الخير من عند الله وكذلك الشر. ويعلم أنّ الله يبتلي ويمتحن عبده بالخير إن شاء، وإن شاء بتجليات المِحن.

٣٨. العنكبوت: ٢.



حتى أنّ محبي الحق سبحانه وتعالى، يرون المرَّ من محبوبهم عسلاً، والضيق من عنده رحمة. ويدركون أنّ ما كابدوه من مشقاتٍ هي تزكية لهم، وكفَّارة لذنوبهم، ورِفعةٌ لدرجاتهم. فيتلقون تلك الابتلاءات على أنها أعلى درجات الإنعام، وكأنها تمامًا، وصفة مرة الطعم يصفها طبيب ماهر لتكون وسيلة للشفاء، أو كمبضع الجراح الذي يجتث ما سقم من أجسادهم ليخلصها من مرض قاتل.

ولهذا السبب تراهم في حالة رضا وحمد وشكر دائم على كل ما يأتي من خالقهم، من مفاجآت سارة، ومن نوازل مؤلمة. فكم من الأرواح النقية لا تقدّر حوادث من شأنها أن تُوقِع في الشكوى والأنين، وحتى في العصيان، أن تُسْرِيَ تقطيباً أو عبوسًا على وجوههم. فقلوب عشاق الحق هؤلاء انصبّ تركيزها على المنزلة المراد بلوغها، ولم تعبأ بما في الطريق من أشواك. وعلى هذا تحلو لهم الأشواك التي تخدش جلودهم، إكرامًا للورود. فيبصرون لطفاً وأنعمًا خفية في المحنة، ويخامرون أسرار المحبة الإلهية الخفية في المصائب.

ومن جهة أخرى، فلو كان الابتلاء بالمصائب والمحن من السوء عند الله، لما أصاب عباده الذين أحبهم بأدنى مصيبة في الدنيا. في حين أنّ الله تعالى أنزل أشد البلاء، بأحبّ العباد إليه. لكن هؤلاء العباد أضحوا بهذا البلاء أكثر الناس طمأنينة.

فهذا سيدنا النبي ﷺ، والذي قاسى أشد المحن على مر الزمان، يرفع يديه حين ضُرب بالحجارة في الطائف داعياً مولاه:



«يا أرحم الراحمين!.. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي... ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» [٣٩]

فالابتلاءات التي تأتي من الله، هي في عيون القلوب العاشقة والمطلّعة على هذا السر، حجر المِحكّ الذي يميز العاشق الحقَّ من العاشق الزائف.

وكم هو جميل قول الشاعر في هذا الخصوص:

جفاءُ الحبيبِ، بالعمومِ وفاءٌ ليس بالجفاء

ومن يقلِ الحبيب يجافي فليس من أهل الوفاء

لا شك أنّ هذا الوعي الروحاني، ليس أمرًا يحظى به جميع الناس. بل هو وَقفٌ على الأرواح السامية لمن اجتازت قلوبهم المراحل}.

يقول حضرة مولانا:

«إنْ هَمّ طائر أن يطير ولم ينبت له بعد جناح، غدا طعاماً للقطط المفترسة».

{إنّ لكل حال ولكل مقام شرطُ استحقاق خاص به. وإنَّ وضْع شخصٍ في مقام لا يحمل شرط استحقاقه، هو زجٌ له في المهالك. تمامًا كخروج طير من العش محاولاً الطيران قبل أن يتعلمه، وكغرق من لا يعرف السباحة إذا رمى نفسه في ماء عميق...

٣٩. ابن هشام ٢/ ٢٩-٣٠؛ الهيثمي ٦/ ٣٥.



ولهذا فعلى الإنسان أن يسبق كل أمر معنوياً كان أم ماديًا بمعرفة حَده. وقد قال العارفون:

«لا عِرفان يوازي معرفة المرء بنقصِه».

ولهذا السبب، فإنّ محاولة تقلُّد المواقف الخاصة بأحوال ومقامات الشخصيات الرفيعة من أهل الفضيلة، دون الاكتراث بعيب النفس ونقصانها، هو أمر خاطئ إلى أقصى درجة، ويصاحبه الرياء المهلك. لأنّ جنوح الشخص إلى تداول الكلمات الصادرة عن لسان حال ومقام أقطاب الروحانيات على لسانه، بمحض تقليد أعمى، وبتصنع يفتقر إلى المصداقية، وكأنها كلماته هو، دون بلوغ السوية القلبية التي بلغوها، هو أمر مضرّ وشديد الخطورة عليه.

على سبيل المثال، فإنّ الكلمات التي مفادها "ولِمحنِكَ حلاوة، ولأنعُمك حلاوة... سواء كنا سعداء أو من البائسين"، مثل هذه الكلمات لو صدرت عن جاهل لم يبلغ ذلك المقام، فإنها تحمل من تحدّي قدر الله تعالى ما لو امتحن الله تعالى ذلك العبد به لكان من الهالكين}.

يقول حضرة مولانا:

«في سبيل الله عبورٌ من النيران. لكن قبل أن تعدوَ النيران تحرَّ وجود الإبراهيمية في نفسك، فمن تعزف النار عن إحراقهم هم الإبراهيميون ولست أنت!...».



«هَبْ أنك كسرتَ صنماً كما فعل إبراهيم، هل بإمكانك أن تلقيَ بصنم جسدك في النار كما فعل؟».

«أنت على سبيل المثال يمكنك أن تمسك عصا سيدنا موسى بيدك. لكن هل لديك ما أوتيَ موسى من قوة، فتجعلَ منها حية تسعى وتكونَ قادرًا على السيطرة عليها ».

«لنقل إنك تملكُ نفس سيدنا عيسى الذي يحيي الموتى، وأنّ دعاءه موجود في خَلَدِك. لكن هل تملك أيها الغافل، ثغر سيدنا عيسى المعصوم عن الخطيئة، فتحييَ قلوب الموتى بنَفَسِك، وتبعث فيهم الروح بلذة حديثك؟».

«لنقل أنك ورِثت ذا الفقّار، سيف سيدنا علي، هل لديك قوة وذراع أسدِ الله علي، فتصول بذي الفقار؟!».

{ إنّ بعض التصرفات والأحوال الفائقة التي يبديها الأنبياء والأولياء، والتي تأتّي من قربهم الاستثنائي من الله تعالى، وتوكلهم عليه وتسليمهم له، هي أسمى من أن نتمكن من تقليدها. هذه الأحوال ليست إلا حقائق أُعلِمنا بها، من أجل أن نتابعها بعشق، وأن نرفع من مستوى السعي والشغف في إطار أحوالنا وظروفنا.

إنّ محاولة شخص متصّف بالنقص والضعف في الحال والقلب، إبداء الأطوار الاستثنائية الكائنة لدى النجوم المنيرة في سماء الروحانيات، ومن خلال فورة حماس آنية، هو جهلٌ بحقيقة



نفسه. كما لو أنه يتوقع أن لا تحرقه النار كما لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام إذا ألقى نفسه فيها قائلاً: «و أنا أيضاً أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»... إنّ محاولة كهذه، لشخص لم يبلغ سموَ قلب إبراهيم هي بلا شك خسران مبين.

بالإضافة إلى أنّ أولياء الله لا يطلبون من الله أبدًا أن يُمْتَحَنُوا بالبلاء والمصائب. مع ذلك، عند حلول بلاءٍ بهم يقابلونه بالصبر والسكينة والثبات. لأنهم يعلمون أنّ الله لن يحمّل عبدًا فوق طاقته، وأنه لا بدّ من أن يرافق صبرُ البلاء من الله ذلك البلاء. وعند تعرضهم لمصيبة يلجؤون إلى رحمة الحق جلّ وعلا معترفين بضعفهم وعجزهم، محافظين بعناية على أدب العبودية اتجاه ربهم.

أمّا طلب المصيبة من الله دون بلوغ هذا السر، على أنّ "الله يبتلي بأشد البلاء أحبَّ عباده إليه" هو تجرؤ منبعه الجهل. لأنه لو كان الله سيبتلي العبد دون أن ينعم عليه بقدرة التحمل، فإنّ العبد سيُسحَق تحت وطأة هذا البلاء، ولن يجد مناصًا من الهلاك.

وكم هي بيان جميل لهذه الحقيقة، تلك الحادثة التي وقعت في عصر السعادة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

«هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»



قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: ﴿رَبنا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[٤٠]. قال: فدعا الله له، فشفاه .[٤١]

ومن جهة أخرى، كم من إنسان يقول: "دعوت بكذا وكذا لكن لم يحدث". فما لا ينبغي نسيانه أنّ قبول الدعاء هو مسألة قلب أكثر من كونها مسألة لسان. يعني هو أمر مرتبط بتعلق القلب بإخلاص بالحق جل وعلا، أكثر مما هو مرتبط بكلام ينطقه اللسان.

وهذا يعني أيضًا أنّ الأمر يستوجب مراعاة آداب الدعاء والكلام. فنطق العبد بكلام كبير في حماس لحظي، وتجاوزه حده وتفوهه بكلام لا يقدر على حملِه، يوقعه في إشكاليات كبيرة.

فقد قرّر الصحابي عبد الله بن عَمرِ و بن العاص مرة أن يصوم كل يوم، وأن يختم القرآن كل ليلة، وأن لا ينام الليل كله، فعندما بلغ ذلك النبي ﷺ أوصاه بالاعتدال.

وقال له أن يصوم ثلاثة أيام في الشهر، وأن يختم القرآن مرة في الشهر. كما أعلمه أنّ مراعاة حق البدن، وحق الأهل، والضيوف سيكون خيرًا له.

---

٤٠. البقرة: ٢٠١.

٤١. مسلم، الذكر، ٢٣؛ الترمذي، الدعوات ٧١/ ٣٤٨٧.

وكان عبد الله يلِّح في الطلب من الرسول ﷺ أن يزيد له، مخبرًا إياه أنه يطيق الزيادة.

وفي النهاية، أوصاه بصيام داوود، الذي كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأن يختم القرآن في كل أسبوع مرة.

لم يستطع عبد الله أن يدرك السر الذي أشار إليه رسول الله ﷺ. فبعد أن مرت الأيام وكبر في السن، وفقد طاقته وقوته القديمة، شقّ عليه الإيفاء بما قال. فعبّر عن ندمه قائلاً:

«ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ»[٤٢]}.

يقول حضرة مولانا:

«القرآن الكريمُ هو وصف لحال الأنبياء. فإن قرأت القرآن وعملت به، فكأنك التقيت بالأنبياء والأولياء! وإن قرأت، ولم تطع أوامره ولم تتخلق بأخلاقه، فما الفائدة من لقاء الأنبياء والأولياء بك؟!».

{التصوُّف هو طريق القرآن والسنة. وكل ما يرمي إليه سيدنا النبي ﷺ، والعلماء والعارفون من أهل التقوى الذين هم ورثته الحقيقيون، هو الأخذ بيد الناس وإرشادهم إلى بساتين نفحات القرآن والسنة. لهذا، فإنّ أكبر علامة بالمعنى الحقيقي على

٤٢. انظر: البخاري، الصوم، ٥٥-٥٦-٥٧، التهجد، ٧، الانبياء، ٣٧، النكاح، ٨٩؛ مسلم، الصيام، ١٨١-١٩٣ .

استفادتنا من رسول الله ﷺ، وأهل الإرشاد إلى الحق، هو مقدار استقامة حياتنا على طريق القرآن والسنة.

وإنّ قصة استاذنا عبد القادر كجه أوغلوا، والذي اشتُهر باسم "يامان ده ده" والذي علمنا دروس اللغة الفارسية، في السنوات التي درست فيها في مدرسة الأئمة والخطباء، هي واحدة من أكبر الأمثلة اللافتة إلى هذه الحقيقة. فأستاذنا رحمه الله كان في السابق مسيحيًا ثم هداه الله بوسيلة حضرة مولانا ومثنويه، فصار عاشقًا أواهًا لله ورسوله، وكان يعطي في حصة اللغة الفارسية بعض القواعد اللغوية، ثم يكتب أحد أبيات حضرة مولانا باللغة الفارسية على السبورة، ثم يطيل في شرح هذا البيت وعيناه تفيضان بالدمع. وفي ذات يوم سُئلَ السؤال التالي: «أستاذنا لماذا تُكثرون الحديث عن مولانا والمثنوي إلى هذا الحد»

فأجاب بهذه العبارة: «يا بُني إنّ مولانا هو الذي أخذ بيدي، وأوصلني إلى باب الحبيب المصطفى ﷺ، فكان وسيلة لهدايتي. إن إكثاري من الحديث عمن أنقذني من النار لقليل!..».

في هذه الحال دعونا نفكر، ولنَزِن أنفسنا بميزان يقيس ثقل استمدادنا من حنايا قلوب الأنبياء والأولياء كما يلي:

– إن كنا نحب رسول الله ﷺ، وعباد الله الصالحين الذين يحبهم ربهم، فإلى أي درجة نحن في دأب وحرص على التشبه والاقتداء بهم؟

- يا ترى لو كان النبي ﷺ أو أولياء الله المرشدين البررة يعيشون بيننا، إلى أي درجة سيصلحون حالنا وسلوكنا؟

- هل سيكون مستوى قيامنا بواجبنا في اتباعهم، مدعاةً لنظرهم إلينا بنظرة مليئة بالتبسم والرضا، أم - لا قدر الله- بنظرة ملؤها اللوم والتأنيب؟ }.

يقول حضرة مولانا:

«**معدة الجسد تقود الإنسان إلى المعالف، ومعدة الروح تبلّغه الرياحين**».

«**إن الحيوان الذي يأكل العلف والشعير يصير قربانًا، والإنسان الذي يتغذّى على نور الله يصير قرآنًا حيًا**».

{إنّ للإنسان كيانين، كيان ترابي وآخر روحاني. فكما نحن في حاجة إلى التغذّي بالأغذية المادية من أجل استمرار كياننا الترابي، والذي يتمثل في البدن المخلوق من تراب، كذلك فإنّ كياننا الروحاني الذي ينتمي إلى عالم اللاهوت بإحسان الله علينا بنفخه فيه من روحه، في حاجة إلى الأغذية الروحانية.

وغذاء الروح هو اللذات الروحانية، التي يأتي الإيمان في مقامها الأول، وتتبعه لذات آخرى مثل معرفة الله، محبة الله، الإخلاص، التقوى، العلم، والحكمة. وإنّ القلب الذي يتغذى بهذه المغذيات، يسعى إلى الله بقوة وثبات، وبخطوات واثقة. وعلى النقيض من



ذلك، فإنّ الذين يُهملون الأغذية الروحانية ويعطون الأهمية كلها لأغذية معداتهم، تثقل بهم أجسادهم، ويهبطون إلى السفاهة، ويتداركون في مهاوي الغفلة.

وكم هو جميل قول أحد العارفين:

«هذا الكون بالنسبة لأولي الألباب هو سرٌ بِدعيٌ "أي سر، وحكمة، ومحلٌ لتأملٍ قلبيٍ للبديع الإلهي"، وهو بالنسبة للسفهاء محل للطعام والشهوات».

إنّ دأب الإنسان الغافل يتمحور في الحفاظ على كيانه الترابي الذي يتمثل في جسد سيؤول يومًا إلى التراب، ويتبدى في حماية هذا الجسد من جميع الأخطار وإمداده بألذّ الأغذية، فترى الغافل يجري وراء شهواته الجسمانية، ولا يقدر على أن يخصص حتى ولو نصيبًا ضئيلاً من هذا الدأب لكيانه الروحاني.

في حين أنّ الخصوصية التي تجعل الإنسان إنساناً، وتميزه عن سائر المخلوقات، تتجلى في مقدار الأهمية التي يتمكن من أن يمنحها لحياته الروحانية. ولهذا فإنه بقدر ما يقضي الإنسان عمره في سعي لتلبية احتياجاته الروحانية متجهًا لربه باشتياق لوصاله، يكون قد اقترب بنفس القدر من سمة "الإنسان الرباني" التي علمنا القرآن الكريم كيفية بلوغها، ويكون قد اقترب بنفس النسبة أيضًا رِفعة الإنسانية وعزّتها}.

يقول حضرة مولانا:

«إنّ ما يفوق بكثير ما يراه الشباب في المرآة، يراه الشيوخ في جزء من لَبِنة».

{يعيش الإنسان بالعموم، في طفولتة غضاضة، وفي عمر ما قبل الأربعين فورة، ثم يدخل بعد الأربعين في طور تفكُّر عميق. لأنّ تجاربه الحياتية تزداد كلما امتدت به الحياة زمنًا أطول. وكلما ازداد اطلاعه على الرابط بين الأحداث والوقائع وبين أسبابها ونتائجها، يمتلك أفكارًا أكثر إصابة، تتعلق بما سينتج عن الأحداث من نتائج.

هذا، وقد قصّ الله تعالى علينا في القرآن الكريم قصصاً عن الأمم والأقوام التي خلت من قبلنا، لئلا نقع في الأخطاء التي حدثت في الماضي. وبذلك نبأنا بالنتائج التي تعطيها الأحوال والسلوكيات السلبية منها والإيجابية، على الفرد والمجتمع.

ومن هذا المنطلق، يتوجب على من أرادوا السير نحو المستقبل بخطوات واثقة آمنة، أن يقرؤوا أحداث الماضي بعين العبرة، وأن يُصْغُوا إلى مواعظ الناس الذين تزخر حياتهم بالتجارب. لأنّ الذين لا يذوقون حلاوة الاصغاء إلى مواعظ وتحذيرات الكبار الذين مرت عليهم الأيام، سيكونون مجبرين على تذوق النتائج المريرة للمصائب التي ستواجههم...}.



يقول حضرة مولانا:

«الليالي تلدُ ما حملتْ بِه».

{إنّ من يعني له الليل ظلامًا لن يعني له النهار نوراً. وليس بإمكان من لا يدرك قيمة الليل أن يعتقد بخيرية النهار. وإنّ من يسود نومُ الغفلة ليلَه، يقضي نهاره محرومًا من الفيض والروحانيات. لهذا السبب علينا أن نحذر من تثاقل قلوبنا، ومن وقوع ليالينا بالكلية أسيرة النوم.

وهناك إشارات مختلفة للحق جلّ وعلا في أوقات السحر، للقلوب ذات الإحساس والسمع. ففي تلك الأوقات التي ينشرح فيها الهواء كالنسيم العليل، وتفوح فيها الزهور بأريج الرياحين، وتصيح فيها الديّكَةُ كساعة التنبيه، يتجلّى فيه المولى ﷻ بفرصة استثنائية على عباده الطامعين بالقرب منه.

فبإحياء وقت السحر، تُستمد من مائدة الضيافة الإلهية الأغذية الروحانية، اللازمة للعبد ليتمكن من أن يبدأ يومه بفيض من الروحانيات الرفيعة. وليقي هذا الفيض الروحاني القلب طوال اليوم من الذنوب والغفلة، وما سواها من شتى أنواع الشرور المبعدة عن الله ﷻ. وليعزّز إقبال القلب على الخير، ومقاومته للشر.

وكذلك، فإنّ إمكانية بلوغ الليل بمثل هذا الفيض الروحاني، تستوجب في النهار حفظ العين واللسان والأذن وسائر الأعضاء

عن المعصية. يعني كما أنّ القمر يحوْل نورًا عندما تغرب الشمس، فنحن علينا أن نسعى بشكل دائم لنحيا حياة فياضة بالنور، من خلال تقوية إيماننا من الليل إلى النهار ومن النهار إلى الليل.

إنّ أولياء الله جميعهم، وبإدراكهم لهذا الشعور، نالوا الفوائد الكائنة في فيض وقت السحر، ولفتوا الانتباه إلى أهمية إحياء هذا الوقت الاستثنائي بالعبادات.

يقول العارف بالله أبو يزيد البسطامي:

«لم يُفتَح عليَّ بأي سر من الأسرار، قبل أن يصير حال ليلي كحال النهار»

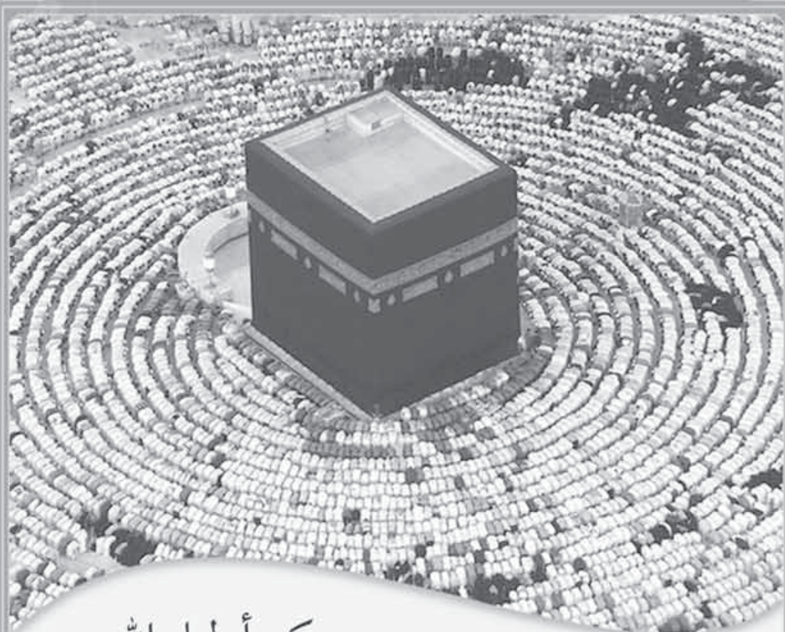
ونحن أيضًا إن استطعنا أن نستغل ليالينا بعناية، وأن نحيي أوقات السحر بالتهجد والذكر والاستغفار والدعاء ستغدو ليالينا أشدّ نورًا من نهارنا }.

نسأل الله تعالى أن يجعل لنا جميعا نصيبًا من جمال هذا الحال.

نسأل الله تعالى أن يَمنّ علينا جميعًا قبل الموت بالاستيقاظ لله بمقتضى الحقيقة التي مفادها "الناس نيام،فإذا ماتوا انتبهوا" من النوم الذي هو أخو الموت، وأن ننال بذلك، قَبسًا من السر الذي مفاده "موتوا قبل أن تموتوا".

آمين!..





مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا

جلال الدين الرومي رحمه الله

٤

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله - ٤

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: «المقصود من الدعاء والعبادة هو أن تكون مع الله عز وجل. فلمن كان مع الله، يطيب الموت، والحياة أيضا. ولكن لمن لا يستطيع أن يجد الله عز وجل، فحتى ماء الحياة بالنسبة له محرق!».

يقول حضرة مولانا:

«الصلاة التي تصليها، ترعاكَ، فتحميك من السوء والذِئاب».

{إنّ كلّ وظيفة من وظائف العبودية، التي كلّفنا بها الله عزَّ وجلَّ، هي بالنسبة لنا وسيلة للطمأنينة وانشراح الصدر والسعادة. فلا حاجة لله في عباداتنا وصلواتنا. لكننا في أشد الحاجة للجوء إلى الله تعالى من خلال الصلاة وسائر العبادات الأخرى.

فالعبادات هي بمثابة الفيتامينات التي تُغذَى بها الروح. وهي كذلك وسيلة لتعزيز مقاومتنا ومناعتنا ضد جميع الأمراض الروحية، من محرمات ومنكرات ومكروهات وما إلى ذلك من سائر الأمور التي تبعدنا عن ربنا عز وجل.

منذ القدم كان الناس يلجؤون عند هجوم الأعداء إلى القلاع المحصّنة. والصلاة بالنسبة لنا، هي ذلك الحصن الذي ندخله لنكون في حماية ربنا عز وجل ضد تسلط الذنوب وهجمات النفس والشيطان. وإنّ من

يتمكنون من الاحتماء بالشكل اللائق بهذا الدرع الروحاني الكائن في الصلاة، يداومون على الحالة الروحانية للعبودية لله بمقتضى الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [٤٣]

وبذلك يكتسبون مناعة روحانية ضد الذنوب والمعاصي من خلال نيلهم للعون الإلهي. فالله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ...﴾ [٤٤]

وكم تزخر الحادثة التالية بالعبرة في موضوع بركة اللجوء إلى الله بالصلاة:

عندما ذهب إبراهيم عليه السلام إلى مصر، فإنّ رجال الفرعون اقتادوا أُمَّنا سارة مع سيدنا إبراهيم إلى قصر الفرعون، وذلك لأنها كانت امرأة ذات جمال. فسارعت أمنا سارة باللجوء إلى الله تعالى من شرّ الفرعون بصلاة ركعتي الحاجة. فعندما أراد الفرعون الاقتراب منها، شعر بالخوف وارتعدت فرائصه، وأمر بإطلاق سراحها على الفور. حتى أنه طلب أن تُهدى إليهم أمنا هاجر عليها السلام، وأمر بأن يرسلوها لهم بأسرع وقت ممكن. يعني أنّ الله تعالى تكرم على أمنا سارة عليها السلام بالحِفظ من شر الفرعون بفعل الصلاة.

---

٤٣. المعارج: ٢٣.
٤٤. البقرة: ١٥٣.

ويعرض اللجوء إلى الله تعالى بالصلاة وطلب العون منه، أهمية كبيرة في عهد آخر الزمان الذي تكثر فيه بشكل خاص الفتن- المفاسد والذنوب. ولذلك علينا أن نحرص على أداء كل عباداتنا، وعلى رأسها الصلاة في غمرة من الفيض الروحاني، حتى نتمكن من أن نسلم -بعون الله- من فتن الزمان من جهة، ونبدي مقاومة ضدّ النفس وغِواية الشيطان من جهة أخرى.فالله تعالى يقول:

﴿...وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ...﴾[٤٥]

يعني يجب على من يصلي الصلاة بحقها أن يكون خالياً من قلة الحياء والفحش والمنكرات الأخرى. وينبغي على من يصلي، ولا يجتنب الذنوب بشكل كافٍ أن يعيد النظر في كيفية أدائه للصلاة. وعليه أن ينظر في مكان الخطأ والنقص وأن يسعى إلى تلافيهما.

فأبو العالية وهو أحد كبار علماء التابعين يقول:

«كُنا نأتي الرجل، لنأخذ عنه، فننظر إذا صلى، فإن أحسنها، جلسنا إليه، وقلنا: هو لغيرها أحسن. وإن أساءها، قمنا عنه، وقلنا: هو لغيرها أسوأ»[٤٦]

هذا يعني إن ما يوليه العبد لصلاته من دقة و أهيمة هي بمثابة شهادة على أخلاقه ومرآة تعكس شخصيته وكيانه الروحاني }.

٤٥. العنكبوت: ٤٥.

٤٦. الدارمي، المقدمة، ٣٨/ ٤٢٩/ ٤٣٧.



يقول حضرة مولانا:

«ضع عقلك في رأسك، واحرص على فائدة الصلاة، من جانب الروح وليس فقط في الظاهر، فلا تهوي برأسك على الأرض وترفعه غافلاً عن عظمة الله، كالطائر الذي يجمع الحَب، واصغ إلى بيان النبي ﷺ: "أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته ..."[٤٧]».

{يتحدث الله سبحانه وتعالى عن "الصلاة" في ٩٩ موضعًا في القرآن الكريم إظهارًا لأهميتها. وعندما يأمر بالصلاة لا يقتصر فقط على أمر "صلِّ" بل يأمر بـ "أَقِمِ الصّلاة".

أمّا إقامة الصلاة فهو أداؤها بحقِّها. يعني إقامة أركانها بتناسق القلب والبدن من خلال مراعاة شروطها الظاهرية والباطنية.

ويحضّنا الله ﷻ على الاعتناء بالصلاة إلى حد أنه يأمرنا بالتزين لها لباسًا بعد التطهر بالوضوء لأدائها قائلاً:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾ [٤٨]

ويطلب منا الله ﷻ "الخشوع" في الصلاة من أجل بلوغنا الفلاح/ النجاة في الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٤٩]

---

٤٧. الحاكم، المستدرك، ١/ ٣٥٣؛ أحمد، مسند، ٢٢٦٤٢.

٤٨. الأعراف: ٣١.

٤٩. المؤمنون: ١-٢.

وسأل أحدُهم، فضيلة بهاء الدين النقشبندي عن كيفية بلوغ حالة الخشوع في الصلاة فأجابه:

«من خلال أربعة أمور:

١. اللقمة الحلال
٢. تجنب الخطأ أثناء الوضوء
٣. الإدراك بأنك تقف بين يدي الله بعد تكبيرة الإحرام
٤. عدم الغفلة عن الله تعالى خارج الصلاة».

يعني أنه يجب علينا من أجل وقاية أنفسنا من الذنوب أن نحرص على أن نكون بقلوبنا مع الله خارج الصلاة أيضًا. إذ أنّ الله تعالى يقول في الآيات الكريمة:

﴿...**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٥٠]

﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٥١]

يعني أنّ مراعاة هذا النوع من الخصوصيات هو شرط للإيفاء بجوهر الصلاة وتحقيق الفيض الروحاني الخاص بها. وعلى النقيض من ذلك، إن تم أداء الصلاة شكليًا فقط فهي مجرد أمر فارغ من محتواه.إذ إنّ النبي ﷺ:

---

٥٠. الرعد: ٢٨.
٥١. الحشر: ١٩.

«إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها» [52]

في هذه الحال، يتوجب علينا أن نحرص على جعل صلاتنا شبيهة بصلاة النبي ﷺ. فهو يقول في الحديث:

«...صلوا كما رأيتموني أصلي...» [53]

إنّ تعليمات سيدنا النبي ﷺ هذه ليست خاصة بشكل وهيئة الصلاة فقط. بل هي تلزمنا، فضلاً عن إيفاء الأركان، بحالة الخشوع بشكل خاص، إضافة إلى التزام هيئة صلاته ﷺ.يقول النبي ﷺ:

«الصلاة خشوع وتواضع وتذلل» [54]

«إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع...» [55]

وعن عبد الله بن الشخِّير رضي الله عنه قال:

«انتهيْتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهو يُصلِّي ولصدره أزيز كأزيز المِرجل من البكاء» [56]

وتروي أمنا عائشة رضي الله عنها قائلة:

---

٥٢. أبو داوود، الصلاة، ١٢٣-١٢٤/ ٧٩٦.

٥٣. البخاري، الاذان، ١٨/ ٦٠٠٨.

٥٤. الترمذي، الصلاة، ١٦٦.

٥٥. ابن ماجة، الزهد، ١٥/ ٤١٧١.

٥٦. أبو داوود، الصلاة، ١٥٨.

«كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالاً بعظمة الله ﷻ» [٥٧]

وهذا سيدنا عمر رضي الله عنه، والذي كان واحدًا من أكثر الناس اتباعًا للنبي ﷺ، عندما طُعن، وأُغشي عليه من كثرة ما فقد من الدم، لم يكن أحد يقدر على إيقاظه من تلك الغشية. ولكن عند دخول وقت الصلاة يقترب أحدهم منه وينادي عند رأسه:

«الصلاة يا أمير المؤمنين الصلاة»، فيقوم عمر بإرادة تبعث على الذهول، ويؤدي صلاته وهو في تلك الحال، والدماء تقطر منه. ثم يقول: «لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة» ثم يُغشى عليه مرة أخرى.

وهذا سيدنا علي رضي الله عنه في إحدى المعارك وقد أُصيب بسهم في قدمه، ومن شدة الألم لم يستطيعوا إخراج السهم، فقال علي رضي الله عنه:

«أخرجوه وأنا أقوم للصلاة».

ففعلوا ما أمر به، فأخرجوا السهم بسهولة ودون عناء، فسأل سيدنا علي بعد الانتهاء من الصلاة وقراءته السلام: «ماذا فعلتم؟» فقالوا: «أخرجناه».

فقد كان جسد علي رضي الله عنه، يتجرد من الدنيا وكأنه غائب عن الوعي، بسعادة روحانية عند الخشوع للصلاة.

٥٧. النسائي، السهو، ١٨.



لاشك أنّ هذا العمق الروحي في الصلاة، هو بالنسبة لنا بمثابة نجوم السماء، فإن لم يكن بإمكاننا السمو إلى علو هذه النجوم، فإننا ننهل الفوائد من صلاتنا بقدر ما أمكننا الاقتراب منها.

باختصار، إنّ الحق جلّ وعلا عندما يقول:

﴿... **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾[٥٨]

فإنه يأمرنا بالصلاة على الصفة التي من شأنها أن تكون سبيلاً لقربنا من الله تعالى. ولهذا، فإنه يتوجب علينا عند وضع جباهنا سجودًا لله، أن نكون في حالة قلبية من التضرع والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى. ويجب أن تكون قبلة قلوبنا رب الكعبة، كما تكون الكعبة قبلة لأجسادنا في الصلاة. وإن كنا نحن لا ندرك الحق سبحانه بأبصارنا، فعلينا أن نحرص على أداء صلواتنا مستحضرين الإحساس بحقيقة أنه يرانا في كل حين، لتكون الصلاة مِعراجًا لنا...

ومن أحد الشروط المهمة اللازمة لإقامة الصلاة أيضًا، هي صلاة الرجال جماعة في المساجد أو الجوامع. فقد أولى رسول الله ﷺ أهمية كبيرة للجماعة حتى إنه كان إذا دخل المسجد تفقد من حضر الصلاة من الناس ومن غاب منهم. وكان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده ودعا له بالشفاء.[٥٩]

---

٥٨. العلق: ١٩.

٥٩. انظر: الهيثمي، ٢/ ٢٩٥.

وكم في هذه الحادثة من العبرة في موضوع تشديد النبي ﷺ على أهمية الجماعة:

عَنِ الصحابي عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، قال:

يا رسول الله، إن المدينة كثيرة الهوام والسباع، فقال النبي ﷺ:

«أتسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح؟ فحي هلا» [٦٠]

انظر إلى العبرة:

وُجِّهت هذه التعليمات النبوية إلى ذلك الصحابي الضرير الذي لا يرى بعينيه، وليس لديه من يأخذه إلى المسجد ويأتي به، وهو معرّض لخطر الهوام اللادغة والوحوش المفترسة. في هذه الحال يستوجب الأمر أن نتفكر، كم أنه من الغفلة والخسران المرعب عدم حضور الجماعة، دون وجود عذر شرعي.

ومن جهة أخرى، فإنّ من الأمور التي تستوجب أن نوليها أهمية كبيرة في موضوع الصلاة، إمكانية تعليم وتدريب أولادنا على هذا الركن الأساسي من أركان ديننا. فعلى مبدأ أنّ "الشجرة تُقوَّم عندما تكون غضّة"، علينا أن نعوّد أبناءنا على الصلاة منذ نعومة أظفارهم، وأن نصحبهم إلى المساجد، وأن نرغِّبهم بالهدايا، وأن نعلمهم قيمة وأهمية الصلاة بالترغيب بها. وعلينا أن لا نبدي أي إهمال أو تكاسل في هذا الخصوص.

٦٠. أبو داوود، الصلاة، ٤٦/ ٥٥٣.



وينبغي أن لا ننسى أن الأطفال يولدون على فطرة وصفاء لائق بالجنة، ولكنّ أهمال الآباء التربية الروحانية لأولادهم، يطير عصافير الجنة هؤلاء - لا قدّر الله - إلى وجهات خاطئة...

كما علينا أن لا ننسى، أنّ ترك الصلاة هو أمر وخيم العاقبة وأنّ الله تعالى توعد الذين يسهون عن صلاتهم ويغفلون فيها بـ"الويل".

وكما جاء في القرآن الكريم فإنّ أهل الجنة حين يسألون أهل جهنم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [61]

فإنّ أول أمر يذكرونه في إجابتهم على هذا السؤال:

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [62] }.

يقول حضرة مولانا:

«من لم يكن قلبه كحاله، كان أبكم، ولو تكلم مئة لغة»

{من لم يكن باطنه كظاهره، ولم يوافق حالُه مقالَه، فإنّ شخصيته ليست جديرة بالاعتبار. فكل الذين لا توافق أفعالُهم ما يقولون، ولا تصدِّق أقوالُهم سلوكياتِهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، ومعاشراتهم، فإنّ ما يقولونه هو كلام وادعاء فارغ لا قيمة له.

فالله تعالى يحذرنا من هذا الأمر في الآية الكريمة:

٦١. المدّثر: ٤٢.
٦٢. المدّثر: ٤٢.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [٦٣]

وشبّه الله تعالى في سورة الجمعة الذين عرفوا التوراة ولم يعملوا بها، أي الذين علموا أحكام الله ولم يطبقوها، من علماء بني إسرائيل، بالدواب التي تُحمل عليها الكتب.

وكما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«إن الله لا يرضى من عبده أقوالاً بلا أعمالٍ».

يعني لا يمكننا أن نتوقع آثاراً إيجابية لكلماتنا في القلوب ما لم تُصدّقها أفعالنا وسلوكياتنا. ولنعلم أنّ الكلام المخلص النابع من القلب هو فقط الذي يجد طريقًا إلى القلوب. أما الكلام الذي ينطقه اللسان والقلب غافل لا إخلاص فيه لا يكاد يدخل من أذن المُخاطب حتى يخرج من أذنه الأخرى. دون أن ينفَذ إلى قلبه.

وقد أولى الصحابة الكرام هذا الأمر أهمية كبيرة، حتى إنهم عندما كانوا يقطعون مسافات طويلة لتلقي حديث من رجل فيجدونه يوهم دابته بطعام في يده الفارغة يعتبرون هذا الأمر ضعفًا في موثوقيته، ويرون أنه ليس أهلاً لأخذ الحديث عنه.

ونخلص إلى أنّ الصدق والإخلاص والاستقامة والموثوقية والثبات، ينبغي أن تتمثل في المؤمن في كل حال من أحواله وكل

٦٣. الصف: ٢- ٣.



حركة من حركاته. وقد كانت الغاية من التصوف بناء شخصية موثوقة صادقة واعية للمؤمن. وتحقيق التناسق والتواؤم بين القلب والبدن. وبلوغ ما عبّر عنه حضرة مولانا بكلماته التي قال فيها:

«إما أن نبدو كما نكون، أو نكون كما نبدو».

ومن جهة أخرى، فإنّ الكلام الكاذب الخالي من الإخلاص، لابد أن يكشِّر عن أنيابه، ويكشف عن حقيقته لأهل الفراسة بشكل أو بآخر. وكمثال على ذلك، فإنّ أخوة سيدنا يوسف عليه السلام الذين رموه في البئر، عندما قالوا: "أكله الذئب" وعرضوا قميصة الدامي على أبيه سيدنا يعقوب عليه السلام، قال ذلك الصّرحُ من الصبر الجميل:

«والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم منه؛ أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه». فردّ كذبهم عليهم وضرب به وجوهم.

فالسيرة تعكس الصورة. ووجه كل إنسان وحاله ومظهره وسلوكه وعيونه، يفصِحون عنه كما يفصح عنه لسانه. فلكل شخص لسانٌ آخر يعبر عنه، يقال له "لسان الحال" ويتجلى في العديد من الهيئات والأوصاف كانفراج الوجه أو تكدره، وما تعكسه نبرة الصوت من ارتباك أو ارتياح. ويستطيع لسان الحال أن يفصِحَ عن كثير من الأمور، ولو كان الإنسان صامتًا. حتى إنه في كثير من الأحيان يكون ما يُفصح عنه لسان الحال أكثر تأثيرًا، مما يقوله لسان المقال}.



يقول حضرة مولانا:

«إنّ الذي يُسدي النُصح بلسان الحال، خيرٌ ممن يُسديه بلسان المقال».

{لقد كان سيدنا النبي ﷺ، ومنذ اللحظة الأولى لتبليغه رسالة الاسلام، مثالاً حيًا للخير والحق، ونموذجاً مُشخِصًا للشخصية والطابع الإسلامي، من خلال تطبيقه أوامر الله ونواهيه على نفسه بالدرجة الأولى. فكان ﷺ مثالا فعلياً تحتذيه الإنسانية، ونموذجًا من الأسوة لم يُعرف له مثيل، من خلال تطبيق أقواله على نفسه أولاً.

لهذا، ينبغي على الذين هم في صدد نصح الناس وأمرهم بالمعروف والخير والحق، ونهيهم وتحذيرهم من الشر والمنكرات، أن يكونوا هم أنفسهم على طريق الاستقامة بالمقام الأول وأن ينطبق حالهم على لسانهم بشكل تام. فالضيافة لا يمكن أن تتم بإناء فارغ.

فقد كان أجدادنا العثمانيون يأخذون شعب الأناضول الطيب النظيف إلى البلاد التي يفتحونها، حتى يشاهد رعاياهم من غير المسلمين بأم أعينهم، جمال أخلاق الإسلام، في سلوكيات هذا الشعب.

فبعد أن فتح السلطان مراد خان الأول كوسوفو قام من جاؤوا من بعده بإسكان أهل الأناضول الفضلاء فيها. فأسلم تسعون في المئة من الشعب الألباني إعجابًا بنزاهة عيش أهل الأناضول.



وبعد فتح إسطنبول، قام السلطان محمد خان الفاتح بفتح البوسنة، وأسكن في تلك المنطقة أهل الأناضول الروحانيين الأنقياء، فأُغرم أهل البوسنة بهؤلاء الأنقياء الذين عكسوا جمال الإسلام في معاشهم، فشرُفَ البوسنيون بالهداية عن بكرة أبيهم دون إجبار أو إكراه.

وملخص القول، إنّ التبليغ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب أن يتم بلسان الحال، وكذا بلسان المقال.

والحقيقة أنّ نصيحة صغيرة جداً يُسديها مؤمن يُرى أنه مثال حي لشخصية الإسلام وطابعه، هي أقوى وأفعل وأكثر تأثيرًا من أعظم الكلمات. وعلى النقيض من ذلك، فإنّ كلام من لا يطابق قولُه فعلَه، لا يمكن أن يترك أثرًا طيبًا في القلوب، حتى لو تحدث بأبلغ الكلمات.

هذا، ويقول ضيا باشا:

«لا يُعتدُ بكلام المرء، فشؤونه مرآته» }.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الصادقين الصالحين، الذين يطابق جوهرهم مقالهم، والذين نالوا سجية تصديق سلوكياتهم وأحوالهم لإيمانهم، والذين استطاعوا أن ينالوا شهادة حسن سلوك بالفوز بحسن القبول بين المؤمنين.

آمين !..



مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا

جلال الدين الرومي رحمه الله

٥

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله – ٥

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: «من أجل أن تعطي العبادة نتيجتها لا بد من اللذة كما أنه لا بد أن تكون البذرة ممتلئة حتى تصبح شجرة».

يقول حضرة مولانا:

«إنّ من لا يصلي صلاة القلب، ولا يكون من أهل الصلاة؛ تخطفه رياح الغضب والشهوة والحرص وتذهب به.

ومن يكون عبداً مملوكًا للشهوة، فهو عند الله أبخس قيمة مِن مَن يُباع ويُشترى من الرقيق».

{صلاة القلب هي الصلاة المجزئة التي تُصلى في غمرة من الخشوع وإيفاء الأركان، وبتسليم القلب لله. والذين حرموا بلوغ سجية تأدية "صلاة القلب"، لتأليههم للأهواء والشهوات ونزعات النفس، فسيغدون متسولي المحشر، حتى ولو تربّعوا في هذه الدنيا على عروش سلطناتها تغمرهم المتعة والرفاه.

وفي مقابل ذلك، فإنّ الذين يحافظون على صلاتهم مع الاستقرار والثبات، وبعزم يتغلب على شهوات النفس وأهوائها، سيكونون حقًا، سلاطين الآخرة، ولو عاشوا حياتهم الدنيا أسرى الفقر والفاقة.

وكم هو جميل تبيان هذا الحديث لهذه الحقيقة:

مرّ رسول الله ﷺ يوماً على أحد أسواق المدينة، وإذا بعبد[٦٤] يُباع بالمزاد، وكان ذلك العبد الذي شرّفه الله بالإسلام يقول:

«أشترط على من يشتريني» فسأله أحد المشترين:

«وما هو شرطك»، فقال العبد:

«أن لا يمنعني من أداء الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ»، فقبل المشتري الشرط واشترى العبد.

وكان رسول الله ﷺ يرى هذا العبد في كل صلاة مكتوبة. وجاء يوماً ولم يجده، فسأل صاحب العبد:

«أين الغلام» فقال الرجل: «محموم يا رسول الله» . فقال أكرم الأنبياء ﷺ لأصحابه: «قوموا بنا نعوده»، فقاموا فعادوه متمنين له الشفاء. ثم سأل رسول الله صاحبه بعد أيام: «ما حال الغلام» فأجاب الرجل:

«يا رسول الله إنّ الغلام لَمَأ به "شارف على الموت"».

فقام رسول الله ﷺ ودخل عليه وهو في برحائه، فقُبِضَ على تلك الحال، فتولى رسول الله ﷺ غسله وتكفينه ودفنه.

---

٦٤. كانت العبودية / الرقُّ، على مدى التاريخ، واحدة من نتائج قانون الحرب. لكن التشريعات التي سنها الاسلام حضت على تحرير العبيد، وجعلت امتلاك العبيد أمرًا شاقًا. وبذلك كان الاسلام هو الذي حرر الانسان من نير العبودية .

فدخل على أصحاب رسول الله من ذلك أمر عظيم "استغربوا الأمر" فقال المهاجرون:

«هجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا فلم يرَ أحدٌ منا في حياته ومرضه وموته ما لقي هذا الغلام»

وقالت الأنصار:

«آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا فآثر علينا عبدًا حبشيًا»

فنزلت الآية الكريمة:

﴿..انَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ... ﴾[٦٥]

لا شكّ أنّ ما جعل هذا المؤمن، والذي في ظاهره ليس إلا عبدا، يبلغ هذه القيمة عند الله ورسوله، هو شعور التقوى الذي وقر في قلبه وبشكل خاص حرصه على الصلاة. فهو اشترط أن لا يُمنع من أداء الصلاة المكتوبة جماعة خلف رسول الله ﷺ، ولم يطلب لنفسه أمرًا دنيويًا. يعني أنّ المزيّة التي جعلته يفوز بعناية الله ورسوله ﷺ هي توقه ليكون مع رسول الله، ورغبته في أداء الصلاة جماعة.

ولا شك أنّ محبة الصلاة والاشتياق إليها، هما مظهر من مظاهر محبة الله التي محلها القلب. فمحبُّ الله يأتمر بأوامره بمحبة. فلنحرص نحن على أداء أوامر الله بصبر دون كسل أو تهاون

٦٥. الحجرات: ١٣. انظر: الواحدي،ص ٤١١-٤١٢.



حتى يحبنا الله. فإذا أحبنا الله فإنه سيُنعِم على قلوبنا بما يحب من الأعمال. ويهبنا القدرة على أدائها بلذة لا يمكن وصفها.

وبمناسبة الحديث عن هذا الموضوع، أرغب أن أروي لكم إحدى ذكرياتي:

أتى إلي في أحد الأيام شاب صالح وقال: «ادعُ لي يا شيخي». فقلت له: «ما الذي ترغب به يا بني، وفي أي حوائجك تطلب الدعاء». لأنّ أكثرية الشباب تأتي لطلب الدعاء إمّا لينجحوا في امتحان، أو أن يحصلوا على عمل، أو أن يتمكنوا من الزواج، وغيرها من المسائل الدنيوية. لكن طلب ذلك الشاب الضارب السمرة كان مميزًا وجوهريًا للغاية، فقد قال مسارعًا بإجابة سؤالي: «ادعُ لي يا شيخي أن يحبّبني الله بالصلاة حبًا كبيراً »

والحقيقة، إنّ حبَّ الصلاة يجب أن يكون هدفًا مهمًا ومثالية يطمح إليها كل مؤمن. لأنّ هذا الحب هو علامة لحبِّ الله. إنّ طلب الشاب الأسمر ذاك يحمل في ثناياه قَبَسًا من تضرع داود عليه السلام الذي جاء ذكره في الحديث:

قال النبي ﷺ: كان من دعاء داود يقول:

«اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»[٦٦]

---

٦٦. الترمذي، الدعوات، ٧٢/ ٣٤٩٠.

كما أنّ رغبة هذا الشاب الأسمر تذكر بهمّ سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد كان يتوسل داعياً ربه:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ [٦٧]

هذا يعني أنّ واحدة من أهم المسائل التي تشغل حياة الأنبياء ويومياتهم هي أن يكونوا هم وذرياتهم من الذين يقيمون الصلاة على تقوى من الله تعالى. وإنّ من الآفاق الإيمانية السامية العظيمة عدم الغفلة عن الله، والتقرب إليه بالسجود، والتوسل إليه بأن يملأ القلوب حبًا للصلاة لتحقيق ذلك.

يقول رسول الله ﷺ:

«...**وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة**» [٦٨]

وكذلك علمنا القرآن أن ندعوا بأن تكون ذرياتنا "**قُرّة أعين**"[٦٩] لنا. إذا علينا أن نفهّم أولادنا أهمية الصلاة، وأن نعلمهم ضوابط الصلاة الصحيحة، حتى يكونوا قُرّة عين، وبياض وجهٍ، وصدقةً جاريةً لنا. فقد كان هذا همّ وشغل الصحابيات رضي الله عنهنّ. فإذا غاب أولادهن عن النبي ﷺ لمدة طويلة ولم يصلّوا خلفه جماعة، كنّ ينبّهنهم، ويطلبن منهم أن يسارعوا إلى تلافي أخطائهم هذه.

---

٦٧. إبراهيم: ٤٠.
٦٨. النسائي، عِشرة النساء، ١٠/ ٣٩٤٠؛ أحمد، ٣/ ١٢٨، ١٩٩/ ١٤٠٣٧.
٦٩. انظر: الفرقان، ٧٤ .

فلنُعوِّد نحن أيضاً أولادنا منذ اليوم على الصلاة ولنصحبهم إلى الجوامع، لئلا نُكون غدًا في قبر مهجور، محروم من الصدقات الجارية، فنصبح من النادمين.

علينا أن لا ننسى أنّ سيدنا النبي ﷺ، أخبرنا بأنّ أول ما يحاسب عليه العبد من العبادات يوم القيامة هو الصلاة، فإن أداها على الوجه الذي أراده الله بلغ النجاة، وإن لم يفعل كان من الخاسرين. [70]

وقد أوصى أرحم الناس بأمته ﷺ في أنفاسه الأخيرة قائلاً ثلاث مرات: «**اتقُوا الله في الصلاة**»، وبعد أن أوصى بأمور أخرى، فاضت روحه الطاهرة إلى مولاها وهو يكرر: «**الصلاة، الصلاة..!**»[71] }.

يقول حضرة مولانا:

«ما يفعل من يفارق جماعة السنة، إلا أن يُرِيق دمه وسط الوحوش الضارية»

«السنة طريق، والجماعة / المجتمع، كالرفيقِ في الطريق، فإن بقي الإنسان بلا طريق ولا رفيق يشتدُّ سأمُه، ويقع في الضِيق».

{إنّ رحمة الله تحلُّ على الجماعة. قال النبي ﷺ:

«**الجَمَاعةُ رَحْمةٌ، والفرقةُ عذابٌ**»[72]

---

٧٠. انظر: الترمذي، الصلاة، ١٨٨/ ٤١٣؛ النسائي، الصلاة، ٩/ ٤٦٢.

٧١. انظر: البيهقي، الشُعَب، ٧/ ٤٤٧ .

٧٢. المناوي، ٣، ٤٧٠/ ٥٤٢٠.

ويقول سيدنا النبي ﷺ، في حديث آخر:

«**إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد**»[٧٣]

إنّ الإسلام ينأى بالمجتمع عن الفردية، والأنانية، ويمنع نمط حياة يعيشه الإنسان منغلقًا على نفسه، ويأمر مقابل ذلك بالاجتماع والتلاحم والتعاون، وعيش الحياة الاجتماعية والتعاضد مع أخوة الدين. ولا شك أنّ خير الوسائل للقيام بذلك هو إقامة الصلاة جماعة في الجوامع التي هي بيوت الله، وشعار الإسلام، ورمز وحدة المسلمين، واجتماعهم وتوحيدهم.

فالتزام صلاة الجماعة في المساجد أو الجوامع، هو واحدة من السنن المؤكدة لرسول الله ﷺ التي ترقى إلى الواجب. وتعتبره بعض المذاهب فرض كفاية، وحتى فرض عين. [٧٤]

وقد جاء في الحديث الشريف:

«**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان**، قال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾**» [٧٥]

٧٣. أحمد، مسند، ٢/ ٤٠٠، ٥/ ٣٣٥/ ٢٢٠٢٩؛ الحاكم، ١/ ٧٣، ٥٩.

٧٤. انظر: أحمد نعيم، ترجمة التجريد الصريح، ٢/ ٦٠٤؛ الشرجي، التجريد الصريح، ٣٦١.

٧٥. التوبة: ١٩؛ ابن ماجة، المساجد ١٩/ ٨٠٢.

يعني أنّ أحد معاني "عمارة المساجد" التي هي علامة الإيمان، هو إحياء وإعمار ذلك المسجد بالجماعة. فالأرض كلها جُعلت مسجدًا لأمة محمد ﷺ. والأمر المهم هو إمكانية إعمار داخل ذلك المسجد. والمسجد إن خلا من الجماعة سرعان ما يتحول إلى طلل بائس. وإعادة إحيائه من جديد دَين في رقاب المؤمنين.

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، وكبار رجال الإسلام، أسوة لنا من خلال إيلائهم عناية كبيرة لموضوع المداومة على الجماعة. إذ إنّ الصحابي عبد الله بن مسعود يقول:

«من سره أن يلقى الله غدا مسلما، فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته، لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف» [٧٦]

ويروي لنا فَضَالَة بن عُبَيْدٍ رضي الله عنه، مثالاً عن العزيمة الكبيرة التي كان يبديها أصحاب الصُّفة في التزام الجماعة في الصلاة، رغم ما يعانون من فقر وفاقة شديدين:

٧٦. مسلم، المساجد، ٢٥٧/ ٦٥٤.



أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى تقول الأعراب هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم، فقال:

«لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»

قال فضالة: «وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ» [٧٧]

كما علّمنا الله تعالى في القرآن الكريم، عدم ترك الصلاة جماعة حتى في الحرب، وفصّل لنا كيفية صلاتها بالتناوب.[٧٨] وفي ذلك تعبير ذاخر بالمعاني يفيد أنّ الصلاة جماعة هي بالنسبة للمسلمين واحدة من مسؤوليات العبودية التي لا يمكن تركها أبدًا.

ومن جهة أخرى، أمر سيدنا رسول الله ﷺ، حتى الصحابي الأعمى بأداء صلاته جماعة في المسجد.

وكل ما ذكرناه ما هو إلا بعض من الأمثلة التي لا تُحصى، والتي تبين شدة حرص الصحابة الكرام على المداومة على الجماعة وعدم تهاونهم فيها أبداً مهما كانت صعوبة ظروفهم.

وكان مثلنا الأعلى رسول الله ﷺ عند سماع الآذان كأنما تتوقف حياته اشتغالاً بعظمة الله، ويدخل في حالة كأنه لا يعرف مَن حوله

---

٧٧. الترمذي، الزهد، ٢٣٦٨/ ٢٣٦٨.

٧٨. انظر: النساء، ١٠٢.

مِن الناس. وكان يصلي صلاته في أول وقتها، ثم يتابع أعماله من بعدها في غمرة من روحانيات هذه العبادة.

ونحن إن استطعنا أن ننظم برامج وخطط أعمالنا تبعًا لأوقات الصلاة، وأن نتجرد فور سماع الأذان من كل شيء مقبلين على عظمة الله، متبعين سنة نبينا ﷺ، نكون قد نلنا -إن شاء الله- محبة ربنا ورضاه. كما أنّ هذه العناية التي سنوليها للصلاة، ستنعكس كذلك فيضًا ورحمة على حياتنا.

وعلينا أن لا ننسى أنّ الصلاة تنهى المؤمن عن الفحشاء والمنكر، أي تمنعه فقط من الأمور السيئة التي ينبذها ويستقذرها الدين والعقل. ولا يتخلف المؤمن بسبب الصلاة عن أي عمل من الأعمال المشروعة وأعمال الخير. بل على العكس، فإنّ المؤمن الذي يأخذ استراحة خلال قيامه بعمله، ويؤدي فيها الصلاة بايفاء أركانها وخشوعها، ثم يتابع أعماله بعدها، تكون تلك الأعمال أكثر خيرًا وبركة.

فعلى سبيل المثال، إنّ المؤمن الراكن لسيارته، أو النازل من الحافلة، المتخذ فاصلاً في رحلته ليصلي الصلاة جماعةً في أول وقتها، من المؤكد أنّ رحلته ستكون أكثر طمأنينة وسلامة. والمؤمن الذي يقطع عمله ويتابعه بعد أداء الصلاة، يسهل عليه عمله ويُوفّق فيه. والطالب إن أغلق كتابه وعاد إليه بعد أداء صلاته حقّ أدائها، يشعر بنفسه، أنّ ذهنه ازداد صفاءً، وقلبه ازداد نورًا.



فكم ينال المؤمنون الذين يبدون هذا الحرص، من الفضل والعون الإلهي. ونحن إن تمكنا أن نبدي هذا الحرص في حياتنا اليومية راجين رضا الله، كم نكون قد نلنا -إن شاء الله- من النعم والأفضال الإلهية في نسبة إخلاصنا. فالله تعالى يحب عباده الذين يبدون هذا الحرص، ويثني عليهم في الآية الكريمة:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [٧٩]

هذا يعني أنّ الله تعالى لا يريد أن يكون أي شيء مانعًا من الصلاة. ويرضى عن عباده الذين يتوجهون إلى عظمته مذللين لهذه الموانع.

أما الذين يكونون خلاف ذلك، ويهملون الصلاة والعبادات، وما في سبيل الله من عزائم ومساعي، من أجل المنافع الدنيوية، مدلين بحجج منبعها النفس الأمارة بالسوء، كقول أحدهم "أنا مشغول للغاية، لا أجد فرصة من كثرة المشاغل، ولا يترك العيال- الأولاد، العمل- الانشغال.."، فإنّ هؤلاء توعّدهم الله بالخسران قائلاً في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [٨٠]}.

---

٧٩. النور: ٣٧.

٨٠. المنافقون: ٩.

يقول حضرة مولانا:

«اعلم أنّ أصحاب النبي أيضًا قد نبههم الله تعالى. لأنهم خرجوا من المسجد، وتركوا صلاة الجمعة حين سمعوا الطبل (المخبر بقدوم القافلة) في سنة مجاعةٍ.

حتى لا يسبقهم أحد ويأخذ البضاعة بثمن بخس،على مبدأ لنكسب أكثر منهم. فقال الله لمن تركوا الصلاة:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً...﴾ ٨١

أي كيف لطبل التجارة أن يجعلكم تتركون النبي ﷺ.

أنتم انفضضتم على عجل لشراء القمح، وتركتم رسول الله ﷺ واقفاً وحده على المنبر.

من أجل شراء القمح، زرعتم بذور أفعال خاطئة لا تليق، وتركتم النبي ﷺ وحده في المسجد لا تستمعون له.

انظر لنفسك من تركت وذهبت من أجل القمح؟ّ! مع أنّ صحبته خير من اللهو ومن المال.

أقصركم حرصكم عن إدراك قوله تعالى:

﴿... قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ٨٢!...»

---

٨١. الجمعة: ١١.

٨٢. الجمعة: ١١.

{يشرح حضرة مولانا في هذه العبارات الحادثة الواردة في الآية الحادية عشر من سورة الجمعة:

تقول الرواية، بينما كان رسول الله ﷺ، يخطب خطبة الجمعة في فترة مجاعة في المدينة، مرّت في المكان قافلة محملّة بالطعام. فهرع إلى القافلة من سمع صوت الطبل المخبر بقدومها، وكان القرع يمثل إشارة للبهجة. وبقي عند رسول الله ﷺ فقط اثنا عشر رجلاً. فينذر الله تعالى بناءً على هذه الحادثة الصحابة الكرام وكل من يأتي تبعًا لهم من أهل الإيمان إلى قيام الساعة، مبينًا كم هو من الخطأ الجسيم والوخيم العاقبة ترك المكاسب الأبدية، من أجل مكاسب الدنيا الفانية في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [٨٣]

كم من الناس يهمل الغاية الأساسية من خلقه واستخلافه في هذه الأرض، وهي العبودية لله، أسير رزق ما، وأحيانًا للانشغال بمنصب أو مقام ما، وأحياناً للثروة والشهوة والشهرة وما سواها، من رغبات ومطامح النفس. في حين أننا جئنا إلى الدنيا لنكون شاهدين فيها وليس مالكين لها. ونحن موجودون في دور الضيافة المسماة بالدنيا، من أجل أن نثبت أننا شهداء الله على الأرض،

٨٣. الجمعة: ١١.



بأدائنا لعباداتنا، ولمهماتنا في العبودية لله تعالى. إن ابتعادنا في دور الضيافة هذه عن الذكر والصلاة وسائر مهماتنا في العبودية، وتلهينا بأننا أصحاب الدور بالقبض بيد الحرص، وكأننا من المفترض بنا أن ننجز الأعمال التي لا تسعها الأرض بطولها وعرضها، هو سبب لخسران كبير.

مما لا شكّ فيه، أنه ينبغي على العبد أن يعمل ويسعى فيما شرعه الله من أعمال لتأمين عيشه وعيش من يعول. لكن لا ينبغي عليه أبدًا أن يجعل ذلك ذريعة لإهمال مهماته في العبودية لربه. وعليه أن لا ينسى أبدًا أنّ أصغر عمل أُخروي جالب لرضا الله، هو أكبر قيمة من الدنيا وما عليها.

وفي سياق إيضاح هذه الحقيقة روى الصحابي الكريم أبو هريرة رضي الله عنه الحادثة التالية؛ قال:

بعث رسول الله ﷺ بعثا فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرة، فقال رجل: يا رسول الله، ما رأينا بعث قوم أسرع كرة، ولا أعظم غنيمة، من هذا البعث، فقال ﷺ:

«ألا أخبركم بأسرع كرة وأعظم غنيمة من هذا البعث؟ رجل توضأ في بيته فأحسن وضوءه، ثم تحمل إلى المسجد، فصلى فيه الغداة، ثم عقب بصلاة الضحى، فقد أسرع الكرة، وأعظم الغنيمة» [٨٤]

٨٤. ابن حبان، الصحيح ٦/ ١٨، ص ٢٧٦/ ٢٥٣٥، بيروت، ١٩٩٣.



فضرب بذلك مثلاً يزخر بالحكمة، لنظرة إيمانية للحياة والحادثات.

إنّ نظرة أولياء الله الذين تمكنوا من النظر إلى الحياة وحادثاتها من هذه النافذة، أصابت بالذهول والحيرة أهل الغفلة الذين إن خسروا خسائر دنيوية أصابهم الحزن، وإن خسروا خسائر روحانية لم يأبهوا لها. وهذا التأنيب لفضيلة الشيخ حاتم الأصم، هو أفضل مثال عن هذا الأمر، حيث يقول ذلك الرجل الكبير:

«فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشر آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا»[٨٥]

رغم كل هذه الحقائق، فإننا اليوم مع الأسف نرى عدم إيلاء الأهمية الكافية لصلاة الجماعة التي هي سنة مؤكدة وفي غاية الأهمية. في حين أننا أحفاد "الأمة الجيش"، الذين بنوا الجوامع الكبيرة في مراكز المدن، ولم يكتفوا بذلك، بل بنوا الكثير من المساجد الصغيرة، بين الأحياء والتجمعات السكنية، والذين نثروا القباب المنقوشة في البلاد التي فتحوها بصلابة الإيمان. كل ذلك حتى لا نُحرم من صلاة الجماعة.

٨٥. الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ١٣٦.



إن نترك اليوم تلك الجوامع مهجورة بعدم إقامة صلاة الجماعة فيها، كيف سننظر في وجوه أجدادنا غداً يوم القيامة؟! وكيف سيكون حالنا، إن كنا معرضين يوم المحشر لعتاب ولوم وتأنيب **النبي** ﷺ، لترك سنته المهمة هذه، بينما نحن نرجو شفاعته؟!}.

نسأل الله تعالى أن يقسم لنا وييسر لنا جميعًا، إمكانية السجود له على النحو الذي يجعل سجداتنا وسيلة للقرب منه، وأن نكون من المؤمنين الذين يحيون ويعمرون المساجد روحيًا، من خلال المواظبة على صلاة الجماعة. وأن يفتح على قلوبنا، بمشاعر الوحدة والتعاضد وروح الجماعة كما أمر بها الإسلام، وأن يجعل من ذلك وسيلة للنهوض واليقظة والنجاة، لأمة محمد المظلومة المقهورة المغدورة المكلومة.

آمين !..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا

جلال الدين الرومي رحمه الله

٦

إنّ حال الذين يجهلون رمضان موسم الغُنمِ العظيم هذا، يشبه حال سيئي الحظ الذين يعيشون فوق كنز دفين ثم يموتون جائعين.

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله – ٦

يقول حضرة مولانا:

«أتى رمضان فاخرج إذاً من سطوة الأطعمة المادية، لكي تتلقى الأرزاق الروحانية النازلة من السماء. هذا الشهر شهرٌ تُنصَب فيه موائد القلب. شهرٌ يتطهر فيه القلب من تلبّكات البدن. شهرٌ تفيض فيه القلوب عشقاً وإيماناً».

{لله الحمد والمنة أن بلّغنا بستان النفحات الأُخروية لشهر رمضان الكريم مرة أخرى. فرمضان الكريم شهرُ رحمةٍ وفضلٍ استثنائي في صفحات تقويم العمر... وأثمن موسم للمغانم الروحانية... وإكرامٌ عظيم وفضل كبير من الله عز وجل على أمةِ محمد... وهو للمؤمنين خزينة إلهية تزخر بالكنوز الروحانية... ففي الحديث الشريف:

«لو يعلم العباد ما في رمضان، لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان» [٨٦]

٨٦. الهيثمي، جـ٣،ص ١٤١/ ٤٧٨١.

لا شك أنّ العبودية لله عَزَّ وَجَلَّ ليست مراسم مخصوصة بأوقات معينة، بل هي حياة من التقوى على مدى العمر. فكل لحظة في العمر هي فرصة لتحصيل الرضا الإلهي. لكن كما أنّ لوقت السحر بين ساعات اليوم ال ٢٤، وليوم الجمعة بين الأيام السبعة للأسبوع، خصوصية روحية مميزة، فإنّ لرمضان الكريم كذلك قيمة استثنائية بين أشهر السنة.

إنّ شهر رمضان الكريم هو دعوة من الله لعبده للتقرب منه ومحبته. وهو موسم غنائم روحانية استثنائية للذين يجيبون هذه الدعوة. فكما يقرر أرباب الأعمال الاعتزال ليكونوا ناجحين في مجالهم، وكما يمتنع الرياضيون عن الاختلاط ليفوزوا ببطولاتهم، ويعتزلون منكبّين على مواسم أعمالهم، ويقطعون علاقاتهم بالعالم الخارجي، فإنّ رمضان الكريم هو فرصة استثنائية للمؤمنين ليجتهدوا ولينزلوا علاقاتهم الدنيوية إلى حدها الأدنى، والإقبال على القرب من الله تعالى ومحبته ومعيته. وهو موسم لتحصيل الرضا الإلهي ولاغتنام الفرص المباركة.

دعونا نتفكّر:

كم نعمل ونكدح ويصيبنا التعب في سبيل أعمالنا الدنيوية؟ وكم نبذل من الوقت والجهد والمال من أجل التمكن من بلوغ أهدافنا الدنيوية؟



فعلينا في هذا الشهر المبارك، أن نرفع مستوى النفير ونسعى بحماس لتحقيق أهدافنا الأخروية، وتقوية حياتنا الروحانية، والارتقاء بعبوديتنا نحو الكمال، ومن أجل أن نتمكن بالتالي من تحقيق القرب من الله ﷻ.

من أجل ذلك، علينا أولاً أن ندرك قيمة هذا الإكرام الاستثنائي من الله لنا نحن العباد. فرمضان هو شهر فضل إلهي تُجزى فيه جميع الخيرات- والحسنات بأجر مضاعف. فالذين يعملون على إحياء شهر رمضان الكريم وجوهرته ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، ينالون ما لا يُحصى من النعم. أمّا الذين يخسرونه بالغفلة وعدم الإحساس، فيُحرمون حرماناً مبيناً.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن الخسران الكبير وعِظَم جُرم الغفلة عن إكرام إلهي عظيم كشهر رمضان الكريم، في الحديث التالي:

«إن جبريل عليه الصلاة والسلام عرض لي فقال: بعدا لمن أدرك رمضان فلم يغفر له قلت: آمين...» [٨٧]

إنّ حال الذين يجهلون موسم الغُنمِ العظيم هذا، يشبه حال سيئي الحظ الذين يعيشون فوق كنز دفين ثم يموتون جائعين. أو يشبهون في سوء حظهم تلك الصخور الصماء التي لا تنتفع حتى بقطرة ماء واحدة من أمطار البركة في نيسان رغم انتقاعهم فيها }.

٨٧. انظر: الحاكم، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٦، الترمذي، الدعوات، ١٠٠/ ٣٥٤٥.



يقول مولانا متحدثاً من باب المجاز بلسان الصوم:

«يقول الصوم: "رباه إن عبدك هذا امتنع عن أكل حتى اللقمة الحلال، ولم يشرب وهو ظمآن طاعةً لأمرك. فأنّى لهذا العبد أن تمتد يده إلى الحرام؟!" ».

{إنّ الصوم الذي هو الميزة الخاصة لرمضان، والعلامة الفارقة له، هو تلقين لوجوب الامتناع عن المحرمات، من خلال الامتناع عمّا أحله الله ﷻ ولو لمدة معينة. ومن هذه الناحية، هو بناء للإرادة المتينة التي من شأنها أن تمنع عن المحرمات في شتى مجالات الحياة. وهو تربية روحانية استثنائية، تنهى كغيرها من العبادات عن الفحشاء والمنكر، والأهواء والمحرمات. وهي كفيتامين، يُعطي القوة للروح حتى تملك المناعة التي من شأنها أن تقاوم بها هجمات النفس.

فكما يكون الصوم الذي تراعى آدابه جُنّة للمؤمن في الآخرة من جهنم، فهو في الحياة الدنيا كذلك وسيلة قوية للامتناع عن المحرمات المودية إلى جهنم. وهو بشكل خاص تربية قلبية تُكسب حرص الامتناع الدقيق عن المحرمات كالغيبة والنميمة والإسراف.

فكما نحاذر في صيامنا أن لا يدخل شيء إلى أفواهنا، ينبغي علينا أن نولي عناية لعدم خروج كلام خاطئ منها. وإلا تعرض صيامنا للضعف في الفيض والروحانيات.



وهذه الحادثة التي جرت في عصر السعادة مثال بارز عن هذه الحقيقة:

عن عبيد مولى رسول الله ﷺ: أن امرأتين صامتا وأن رجلا قال: يا رسول الله إن هاهنا امرأتين قد صامتا، وإنهما قد كادتا أن تموتا من العطش، فأعرض عنه أو سكت، ثم عاد، وأراه قال: بالهاجرة، قال: يا نبي الله، إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا قال: «**ادعهما**» قال: فجاءتا، قال: فجيء بقدح أو عس فقال لإحداهما: «**قيئي**» فقاءت قيحا أو دما وصديدا ولحما حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للأخرى: «**قيئي**» فقاءت من قيح ودم وصديد ولحم عبيط وغيره حتى ملأت القدح، ثم قال عليه الصلاة والسلام:

«**إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا يأكلان لحوم الناس**»[٨٨]

فالله تعالى يقول في الآية الكريمة:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾[٨٩]

واصفًا كم أنّ هذا الجرم وبالٌ كبير عند الله ﷻ.

٨٨. أحمد، مسند، ٥/ ٤٣١/ ٢٣٦٥٣، الهيثمي، جـ٣ ص ١٧١/ ٥٠٠٨.

٨٩. الحجرات: ١٢.

هذا يعني أنه ينبغي علينا من أجل أن نتمكن من أداء الصيام على وجهه الصحيح، أن نحافظ على صيامنا من خلال الابتعاد عن كل أمر يبغضه الله.

فسيدنا علي رضي الله عنه يقول:

«كونوا لقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل، فإنه لن يقل عمل إلا مع التقوى».

يعني أن التمكن من ختم العمل الصالح دون أن يضيع أجره، هو أمر في غاية الأهمية، يوازي القيام بذلك العمل. وكم تشكل هذه الحادثة نموذجًا جميلاً على هذا الحرص عند المؤمنين العارفين، يقول أحد المؤمنين العارفين: «وآسفاه لقد فَسدَ صيامنا»

فقال أحد طلابه: «لكن يا سيدي، أنتم لم تغتابوا»

فقال رداً عليه: «نعم نحن لم نغتب لكننا استمعنا للغيبة. والمستمع للغيبة كالمغتاب».[٩٠]

فإنّ الله نهى عن الاستماع للغيبة كما نهى عنها. فغض الطرف عن الغيبة والاستماع لها، هو وقوع ضمني فيها.

ومما ينبغي أن يقال بمناسبة الحديث عن هذا الموضوع، أن الغيبة من حقوق العبد الشديدة الثقيلة. وحق العبد أمر خارجَ عفو الله. ولهذا السبب، فعلى كل من ذكر أخاه في الدين بما يكره، أن

٩٠. عبد الغني بن أبي سعيد، رسالة هو الغني، ص ١٥٢.



يستسمحه ويطلب العفو منه. وعلاوة على ذلك، عليه أيضًا عند طلب العفو أن يقول معترفًا بكل شيء كما حدث: «لقد قلت في حقك كذا وكذا، في حضور فلان وفلان من الناس». وإن كانت غيبته تلك سبباً في إحداث فتنة، فيتوجب عليه لقاء ذلك، أن يكثر من الاستغفار، وأن يتصدّق، وأن يرجو عفو الله تعالى بعيون مليئة بدموع الندامة.

هذا يعني أنّ الغيبة هي واحدة من حقوق العبد، الثقيلة التي يصعب التعويض عنها. ولهذا السبب، فإنّ أفضل السبل أن يقوم الإنسان بحفظ لسانه في وقت الغيبة، وأن لا يتورط أبدًا بهذا الذنب، بدلاً من ارتكاب هذا الذنب ثم معالجته بالاستغفار.

باختصار، فإنّ على الصائم أن يحفظ يديه ولسانه وأذنيه وكل أعضائه عن كل سلوك وتصرف لا يرضي الله ﷻ، وفي مقدمتها الغيبة. يعني يتوجب عليه أن يُصَوِّمَ جميع أعضاء جسده. وإلا فلا مناص له من أن يقع في استحقاق التحذيرات والتنبيهات النبوية:

«رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع..» [91]

«مَنْ لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه» [92]

٩١. ابن ماجة، الصيام، ٢١/ ١٦٩٠.

٩٢. البخاري، الصوم، ٨ / ٦٠٥٧.



يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

«حتى ولو كنتم تضعفون من الصلاة فتنحنون كالقوس، وتذوبون من الصيام فتصبحون كالمسمار، فإنّ الله لا يقبل هذه العبادات إن لم تتقوا الحرام والشبهات» }.

يقول حضرة مولانا:

«لا تبالغ في تغذية الجسد وإنمائه، لأنّ نهايته قربان يُقدّم للتراب، بل احرص على ملء القلب من ينابيع الفيض، لأنه هو من يرقى المعالي ويمنح الشرف.

أقلل على بدنك من مآكل السمن والعسل، فمن يُمعن في تغذية جسده يهوي في الشهوات ثم يكون مآله مفضوحًا.

امنح الروح الغذاء المعنوي، وقدم لها الفكر الناضج، والفهم اللطيف، والغذاء الروحاني، حتى تبلغ منتهاها، قوية منيعة».

{إنّ الشَرّه، والإسراف، والاستهلاك الفاحش، والكسل، وكثرة النوم، وما شابهها من الأحوال، تتلف الروح، وتكون سببًا لضياع الثراء المعنوي. فالإثقال على القلب، يورث الكسل والتهاون في العبادات.

لذلك يحضّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإقلال من الطعام قائلاً:

«ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[٩٣]

٩٣. الترمذي، الزهد، ٤٧/ ٢٣٨٠.



في الوقت نفسه، فإنّ عبادة الصيام التي تضع الضوابط للطعام والشراب وتروض الجوع، وتعالج بالتالي مرض الشره، هي وسيلة عظيمة للشفاء الروحي والجسدي.

على المؤمن أن يفوق قلقه على جوع روحه، قلقه على جوع بدنه. لأنّ البدن الذي هو بمثابة لباسٍ للروح عائد إلى أصله، التراب. أمّا الروح، فإنها سترقى وتسمو بقدر القوة المعنوية. لذلك يتوجب على الإنسان أن يولي اهتمامه لصحة روحه بشكل أكبر، دون إهمال صحة بدنه.

وكم في هذه الحادثة من تبيان جميل، للحرص الذي تمتع به أولياء الله في هذا الأمر:

يقول محمد بن كعب القرظي: لقيت عمر بن عبد العزيز بالمدينة في شبابه وجماله وغضارته قال: فلما استُخلف قدمتُ عليهِ فاستأذنتُ عليه فأُذِنَ لي فجعَلتُ أُحِدُّ النظر إليه فقال لي: «يا ابن كعب مالي أراكَ تُحدُّ النظر». قلتُ: «يا أمير المؤمنين لما أرى من تغيُّر لونك، ونحول جسمك، ونفار شعرك». فقال: «يا ابن كعب، فكيف لو رأيتني بعدَ ثلاثٍ في قبري وقد اقتلع النمل مقلتيَّ وسالتا على خدي، وابتدر منخراي وفمي صديدًا، لكنت لي أشدّ إنكارًا، دع ذاك! أعد عليَّ حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ...» [٩٤]

٩٤. الحاكم، المستدرك، جـ٤، ص ٣٠٠، رقم ٧٧٠٦.



يُلاحظ من خلال هذا، أنّ الهم الأساسي لعباد الله الصالحين هو بلوغ أرواحهم الطمأنينة والسلامة، وليس أجسادهم. لأنّ ما يعود على العبد بالفوائد في رحلة الأبدية، ليس مقدار جمال وصحة وقوة البدن، وإنما مقدار قرب الروح من الله تعالى.

أمّا ما يقرب العبد من ربه، هو امتلاكه قلبًا نقياً من الذنوب، وقيامه بالأعمال الصالحة التي تحقق رضا الله. ففي الحديث الشريف:قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٩٥]

فالله تعالى، كما بعثنا إلى الدنيا أنقياء، يريد منا أن نعود إلى جلاله بقلب نظيف، منقى من أدران وقذَر الذنوب. وعلينا أن لا ننسى أنّ أجمل هدية سنصحبها معنا إلى جلال الله، هي مرآة قلبية نقية خالصة برّاقة مزدانة بانعكاس أسمائه الحسنى }.

يقول حضرة مولانا:

«اعلم أن في التقلل من البدن والمال والملك، فائدة للروح، تنجو بها من الوبال. فالمال يخرج من اليد ويضيع ظاهريًا بالعطاء والإنفاق لكن تفيض على قلب من يبذله جمهرةٌ من الإحياءات الباطنية».

٩٥. مسلم، البر، ٣٤، ٢٥٦٤.



{إنّ عبادة الصيام، ومن خلال الحرمان القصير الأمد الذي تفرضه، تُؤجج الشعور بحال الجائعين، وهمّ وألم المحتاجين، مذكرةً بقدرِ النِعم. وبذلك تكون وسيلة لتجيُّشِ وفيضان ينابيع الرحمة والرأفة والكرم في القلوب.

يعني، أنّ أول درس يعطيه الصيام هو درس الرحمة. فالصيام يفتح شرايين القلوب المسدودة بعدم الرحمة. لأنّ من يجوع يشعر بحال الجائع.

ففي سنوات الجوع التي حلت بمصر سئل سيدنا يوسف عليه السلام:

«أنت واحد من الذين يحكمون خزائن الدولة. لماذا تترك نفسك للجوع؟» فأجاب النبي العزيز عليه السلام: «أخاف إن شبعتُ أن لا أشعر بحال الجائعين».

وهكذا يستوجب رمضان الكريم، ومن خلال الرقة التي يبعثها جو النفحات فيه، نشر أجنحة الرحمة والشفقة على الفقراء والمحتاجين، بمزيد من الكرم في هذا الشهر. وما لا ينبغي نسيانه أنّ الله تعالى يمتحننا على الدوام، فيما يتعلق بقابلية صرفنا للإمكانات التي أنعم علينا بها في سبيل مرضاته.

بالإضافة إلى أنّ هناك سرًا مميزًا جداً يكمن في إمكانية صرف المال - المُلك لوجه الله. ألا وهو ازدياد البركة والسعة في المال رغم بدو النقص الظاهري عليه، كشجرة قُلّمت فأنبتت براعم أخصب}.



يقول حضرة مولانا:

«لا يعتري المالَ قط من الصدقة نقصانٌ، بل بذله في الخير يقيه الضياع والفقدان.

لا يعتري الذهب قط من الزكاة نقصان، بل يحقق من خلالها زيادة وفيض، والزكاة التي تؤديها، تحرس جعبتك وتحميها.

فالزرع يُفرِغ بيدرَ الزارع، لكن كم ضِعفا تتضاعف هذه البذوره في وقت الحصاد؟ كم من بيدر يملأ مكان الذي أفرغ.

فإن بقي القمح في البيادر مكنونًا ولم يُبذَر، يصير طعام الدود والسوس والفأر، حتى لا تبقي منه شيئأ ولا تذر».

{إنّ قدر الإخلاص في الزكاة والصدقات والفِطرة، وبالتالي في كل إنفاق في سبيل الله، تغدو ضماناً معنوياً للمال، فهي تحفظه من الضياع. فالله تعالى يتفضل على عبده مقابل كرمه الخالص لوجهه تعالى، بـ ١٠ إلى ٧٠٠ ضعف من الأجر.

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ:

«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم، أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم، أعط ممسكا تلفا» [٩٦]

هناك أمران هما الأكثر تأثيرًا في شخصية الإنسان. أولهما كون صحبته صالحة أو صحبة سوء، والآخر هو درجة الحلال في كَسبِه.

٩٦. مسلم، الزكاة، ٥٧، ١٠١٠.

كل إنسان يظن أنه هو من يتصرف بالمال، إلا أنّه على الأغلب، المال هو الذي يتحكم بصاحبه. يعني أنّ الصفة المعنوية للمال، توجّه شخصية صاحب هذا المال. فالمال كالثعبان يذهب من الجحر الذي جاء منه. لهذا السبب، يكفي لمعرفة نسبة الحلال في الكَسبِ، أن يُنظر إلى وجهات صرفه. فإن كان حلال المصدر صرف في أوجه الحلال، وإن كان حرامه صُرف في وجهات الحرام.

لهذا، فإنّ القدرة على صرف المال في سبيل الله هو شرف عظيم. لا يناله كل العباد. وكم يزخر بالمعاني قول سيدنا علي في البخلاء الذين لم ينالوا هذا الشرف:

«عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء».

وفي النتيجة، ينبغي علينا إيلاء أهمية كبيرة في أداء مهمتنا في الأخوة، من خلال البذل من النفس والمال في شهر رمضان الذي يفيض بنفحات رحمة الله. فأكرم الخلق سيدنا محمد ﷺ، كان في رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان يجتهد ويزيد من العبادات والطاعات فيه قدر استطاعته، فعندما سُئل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**صدقة في رمضان**»[٩٧] }.

٩٧. الترمذي، الزكاة، ٢٨/ ٦٦٣.



نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعًا لاغتنام فرص المغانم الأبدية في شهر رمضان المبارك جاعلاً كل ليلة لنا ليلة قدرٍ، وكل ما نراهُ خَضِرًا. وأن ينعم ويتفضل علينا ويكرمنا ويحسن إلينا بإحياء كل شعائر رمضان وبلوغ عيد حقيقي مزدان بالعفو الإلهي وعتق الرقاب من النار. وأن ييسر لنا جميعًا، إلحاق رمضاننا برمضان السنة القادمة بالأعمال الصالحة والنية الخالصة، وأن يمنحنا القدرة على عيش حياتنا كلها في جو النفحات الروحانية الرمضانية الدائمة. وأن يمّن علينا بسرور عيد أبدي في الدار الآخرة.

آمين!..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رحمه الله

٧

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ٧

يقول مولانا جلال الدين الرومي: «القلب يقوم بنفض الأوراق الصفراء الشاحبة من غصنه حتى ينمو الورق الأخضر على الدوام. ويقوم باقتلاع جذور السرور القديم، حتى تتبختر لذة جديدة قادمة مما وراء "العالم المحسوس". وكل ما يريقه الحزن من القلب أو يسلبه، فإنه يعوضه بما هو خير منه».

يقول حضرة مولانا:

«شكر النعمة خير من النعمة ذاتها، أفيترك محبُ الشكرِ الشكرَ ويَخْلُد إلى النعمة؟

فالشكر روح النعمة، والنعمة جلدها وغلافها. لأنه لا يُبلّغك بابَ الخليل إلا الشكر.

والنعمة ربما تمنحك عكس اليقظة وهي الغفلة، والشكر يجلب اليقظة على الدوام.

فاجعل عقلك في رأسك واصطد النعمة الحقيقية بنعمة الشكر!».

{إنْ أكرمنا أحدُ أصدقائنا كرماً لا حد له ولا حصر فإننا نستحيي من أن نخطئ بحقه أبسط الأخطاء، ونتجنب ما يؤذيه كل التجنب. بل نقابله بكل جميل يُسِّر لنا لنعبّر له عن مشاعر الشكر والامتنان.

إنّ الله عَزَّ وَجَلَّ يهبنا، نحن عباده في هذا العالم الفاني، نعماً لا تُحصى لنشكره سبحانه، وبهذه النعم يمتحننا لينظر من يشكر ممن يكفر. ويبين لنا أنّ الشاكرين سينالون رحمته وأنّ الكافرين سيبوؤون بعذابه.

لا يقتصر الشكر على مجرد قولنا بألسنتنا "لك الشكر يا رب" إذ يجب علينا ملء هذا الشكر اللفظي بالشكر القلبي والفعلي. فالشكر القلبي؛ هو ترسيخ شعور أنّ الله تعالى هو الصاحب الحقيقي لهذه النعم في القلب.

والشكر الفعلي؛ هو عدم استخدام تلك النعم فيما لا يرضي الله ﷻ، بل جعلها وسيلة لنيل الرضى الإلهي باستخدامها كما يشاء الله. أمّا الرضى الإلهي فهو أكبر نعمة يمكن للإنسان أن يحصل عليها، إذ ليس ثمة نعمة أكبر من كسب رضا الله ﷻ. كما أنّ الله ﷻ، بينما كان يذكر الصفات الفارقة للمؤمنين حول النبي ﷺ قال:

﴿...**يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا** ...﴾[٩٨]

وبهذا يشير تعالى إلى أن نيل رضوانه ينبغي أن يكون أعظم وأسمى غاية في قلوب المؤمنين. ومن هذا المنطلق يجب علينا أن ندعو الله ليجعل جميع مشاعرنا وأفكارنا وأعمالنا محط رضوانه وقبوله.

ثمة حقيقة، وهي أنه لو مُنح إنسان الدنيا بأكملها وعاش ألف سنة يرفل في النعيم والمتعة واللذة فسيموت يوماً ما، وستبقى تلك النعم في الدنيا. أمّا تحصيل رضوان الله بشكره على النعم

٩٨. الفتح: ٢٩.

الفانية فهو رأس مال السعادة الأبدية في الآخرة والتي هي الحياة الحقيقية.

من هذه الناحية، فالقدرة على شكر الله هي نعمة استثنائية توجب الشكر. أي أنه يجب على العبد إضافة إلى ما نال من النعم المادية والمعنوية التي لا حصر لها أن يشكر الله على أن وفقه إلى شكره. يجب أن يشكر الله تعالى على أنه هيَّأ له أن يذكره وأن يسجد له وأن يكون عبداً له. يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٩٩]

فيخبرنا أنه ليس إلا الشكر أو الكفر من ينفع الإنسان أو يضره.

إذاً، فالواجب السعي إلى تحصيل مرضاة الله بشكره على نعمه الكثيرة ما علمنا منها وما جهلنا. وكفى بالتعلق بالرزق ونسيان الرزاق حمقاً وغفلة.

وها هو فضيلة يونس أمره يخاطب من نظر إلى النعمة وعمي عن منعمها وسرد في الغفلة مغروراً بما كذبت عليه مرآته فيقول:

يا صاحب المال يا صاحب الملك
أين صاحبهما الأول؟
المال كذبة والملك كذبة
وزد على ذلك ببعض لهوك!...

---

٩٩. الإنسان: ٣.



وقد بين الله ﷻ لنا حال أهل الغفلة الذين أسرتهم الدنيا وانخدعوا بالسراب العابر فقال في كتابه الكريم:

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾[100]

ومما يجب ألا ننساه أنّ النعمة التي لا تُشكر خرجت بالأصل من كونها نعمة، وتحولت إلى وزر ثقيل. وإنّ النعمة التي يجعلها العبد رأس مال عجبه ويتغطرس فيها ويتكبر آمناً زوالها ليست بنعمة بل هي في الحقيقة كارثة معنوية تقلب حياته الآخرة فصلاً من فصول العذاب.

إنّ النعمة الحقيقية التي تنفع العبد ما هي إلا النعمة التي يمكن إيفاء شكرها، أمّا النعم التي لا تُشكر بل تستعمل في المعصية والكفران هي أصلاً فتن وابتلاءات وأوزار، والغافل يفرح بها ظاناً أنها نعمة، ولو حُرِمها لبات حزيناً. وهذه الحال هي حال ذهول باعتقاد الشقاء نعيماً والنعيم شقاءً.

والله تعالى يشير إلى هذه الغفلة التي يقع فيها كثير من البشر في آيات من كتابه الكريم فيقول:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[101]

١٠٠. الغاشية: ٣.

١٠١. الفجر: ١٥-١٦.

هذا يعني أنه على الإنسان أولاً أن يتخلى عن اعتقاده بأنّ النعم هي وسائل للخير بصورة مطلقة، وألا ينسى أنها -كسيف ذي حدين- يمكن أن تكون واسطة للخير، ويمكن كذلك أن تكون واسطة للشر. ولكن عليه أن يسعد بالنعمة الحلال التي يمكنه إيفاء شكرها. ويجب أن يعلم أنّ حرمانه من نعمة تجره للغفلة هي بالأصل فضل رباني عليه، وأن يشكر الله على حرمانه منها.

إنّ سيدنا سليمان عليه السلام الذي أوتي ملكاً لم يؤته أحد غيره من البشر لم ينسَ ربه الذي هو الصاحب الحقيقي لهذه النعم، ولم يجعل قلبه خزانة للأمور الدنيوية، وقد مدحه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿... نِعْمَ الْعَبْدُ...﴾ [١٠٢]

وكذلك سيدنا أيوب عليه السلام الذي امتحن بأشد أنواع الابتلاء والألم والمرض والفقر داوم على صبره ورضاه وشكره، وقد مدحه الله أيضاً فقال: ﴿... **نِعْمَ الْعَبْدُ**...﴾ [١٠٣]

وهذا يعني أنّ الأغنياء الشاكرين والفقراء الصابرين كلاهما على قمم الفضل ذاتها، من جهة نيل رضا الله ومحبته.

ومن أجل هذا، فإنّ حمد الله تعالى وشكره دائماً وفي جميع الأحوال، مدّها وجزرها وحلوها ومرها، ينبغي أن تكون صفة ملازمة للمؤمن لا تتحول }.

---

١٠٢. ص : ٣٠.
١٠٣. ص : ٤٤.

يقول حضرة مولانا:

«إنّ مظهر تجلي كرم الله هم الفقراء. فأولئك الفقراء يطلبون أصحاب الكرم ويبثونهم همومهم. فيهيئون سبل النعيم لأولئك الأغنياء أصحاب النخوة».

«كما يحتاج المسكين إلى الكرم والخير، فكذلك الكرم والخير يحتاج إلى المسكين. وكما تبحث الحسناوات عن مرآة صقيلة لامعة نقية لينظرن إلى حسنهن، فكذلك الكرم يبحث عن المساكين والضعفاء».

«المسكين مرآة الأجاويد، فإياك أن تشوب صفاء المرآة بكلمات جارحة أمامها».

{إنّ إنفاق النعم التي منّ الله ﷻ بها في رضاه لهو أحسن طريق للتعبير عن مشاعر الشكر له سبحانه. والنعيم والملك الحقيقيان للغني هو في إنقاذ النفس من البخل والإسراف، وإنفاق المال في سبيل الله، وإسعاد المحتاجين والمكلومين بالإحسان والإكرام. والمؤمن هو الذي يعيش على الفرح بإسعاد المحتاجين، وهو المضحي والمؤْثر على نفسه الجواد. ولا تحصل طمأنينة القلب إلا بإسعاد عباد الله المكلومين.

ثمة حقيقة، وهي أنّ الفقير في هذه الدنيا محتاج إلى الغني، أمّا في الآخرة فإنّ الغني محتاج إلى دعاء الفقير له بالخير أكثر



من حاجة الفقير له. فالفقراء من هذه الناحية هم نعمٌ على الأغنياء لا تقدّر بثمن، لأنّ الأغنياء بواسطة هؤلاء الفقراء ينالون رضا الله ﷻ.

لقد كان كبارنا عندما يقدّمون معونة نقدية يضعون المبلغ الذي يريدون تقديمه في ظرف جميل، مستحضرين ذلك الشعور والحساسية، ويكتبون عليه عبارات لطيفة مطيّبة للخاطر مثل "نشكركم لقبولكم".

كما أن لكل شأن آدابه فللإنفاق آدابه كذلك. فالإنفاق المرعية آدابه يحمل العبد إلى قمم الفضيلة، في حين أنّ قبيح الأفعال، كالمنَّ والأذى والاستعلاء، يؤدي إلى إذهاب هذه الفضيلة المستثناة.

كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى...﴾[١٠٤]

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَر. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[١٠٥]

لم يكن سيدنا رسول الله ﷺ يهنأ بشيء من مال الدنيا يقع في يده قبل أن ينفقه على المحتاجين. وعندما لا يجد ما ينفقه على المساكين كان يعرض بوجهه من حيائه ﷺ، فنزل في ذلك قول الله ﷻ:

---

١٠٤. البقرة: ٢٦٣.

١٠٥. الضحى: ٩-١٠.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [١٠٦]

هذا يعني أنه ليس في أخلاق الإسلام ردّ للمحتاج أو دلّه على طريق مسدود، فإذا كان المؤمن عاجزاً عن تقديم أي شيء فعليه على الأقل أن يجتهد في مواساة المحتاج بكلمات يطيب بها نفسه.

فالقلوب محط النظر الإلهي، والله تعالى إلى جوار القلوب المجروحة، ولذلك ينبغي التعامل بأقصى درجات الحذر واللطف مع المظلومين. وينبغي كذلك ألا ننسى أنّ الجرح الذي تتركه العبارات الفظة والجارحة في القلوب الحزينة لا يمكن لأي مرهم أن يشفيه. فلو كُسر الزجاج مرة واحدة فلن يعود أبداً كسابق عهده، ولو جهدت في إصلاحه وإلصاقه}.

يقول حضرة مولانا:

«يا بني، كلٌّ موته على شاكلته، فالموت يبدو عدواً مرعباً لكارهيه وأعدائه الذين لم يفكروا بأنه لقاء الله، بينما يبدو صديقاً لأصدقائه».

«يا أيتها الروح الفارّة من الموت خوفاً منه! إن شئت جوهر الأمر وصحيح المقالة فأنت لست تخافين من الموت، إنما تخافين من ذنوبك وغفلتك».

١٠٦. الاسراء: ٢٨.



«لأنّ ما رأيته في مرآة الموت فخشيت منه ووجلت ليس مُحيا الموت، إنما وجهك القبيح. فروحك أشبه بشجرة والموت ورقها، فكل ورق يأخذ شكله وفق صنف الشجرة...».

{يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[١٠٧]

كما أنه لا يكون على المؤمنين، الذين أمضوا حياة عبوديتهم لله على إيمان به وتقوى منه، خوفٌ ولا حزنٌ في القبر ولا في الآخرة فكذلك سيكون حالهم عند النفس الأخير الذي يمثل لحظة وداع الدنيا الفانية. والكل سيمر من باب الموت المفضي إلى العالم الأبدي حسب حاله المعنوية. فالبعض يمر بسهولة بالغة والبعض بأشق الصور وأشدها. كما أنّ رسول الله ﷺ يقول:

«إن الرجل المسلم إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا جاء ملك الموت فقعد عند رأسه، وينزل ملائكة من السماء كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، فيقعدون منه مد البصر. قال: فيقول ملك الموت: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء... وأما الفاجر فإذا كان في قبل

١٠٧. يونس: ٦٢-٦٣.



من الآخرة وانقطاع من الدنيا أتاه ملك الموت فيقعد عند رأسه وينزل الملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيقعدون منه مد البصر، فيقول ملك الموت: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينقطع معها العروق والعصب كما يستخرج الصوف المبلول بالسفود ذي الشعب...» [١٠٨]

هذا يعني أنّ الموت سيلقاه الكافرون والفاسقون الذين ضيعوا نعمة العمر، وقد كانت إكراما عظيما من الله،ولكنهم ظلوا أسرى نفوسهم ودمى بيد الشيطان، فهؤلاء سيكون الموت لهم رحلةً من العذاب مليئة بالكوابيس، وسيجدون القبر سجناً من الظلام وحفرة من حفر النار.

وبالمقابل، فالمؤمنون الذين اتبعوا أوامر الله ونواهيه، وعدلوا عن شهواتهم، سيكون نَفَسُهم الأخير فرحة كفرحة العيد، وحماساً للقاء سعيد، وسيجدون قبرهم روضة من رياض الجنة.

فالموت يبدو لهؤلاء العباد الصالحين شرطاً إجبارياً للقاء ربنا ذي الجمال الذي يفوق الخيال وذي الكمال الذي يفوق الإدراك. وبهذا يتحول الموت -الذي ترافقه رعشات بردٍ لدى كثير من الناس - في القلوب إلى حماسٍ للقاء "أعظم الأخلاء".

وفي إحدى المرات قال سيدنا رسول الله ﷺ:

١٠٨. الحاكم، المستدرك، جـ١، ص٩٣-٩٥/ ١٠٧.



«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

فقالت إحدى أزواجه: «إنا لنكره الموت»

فقال رسول الله ﷺ:

«ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه» [١٠٩]

هذا يعني أنّ العباد الذين نالوا المحبة الإلهية في هذه الدنيا بإيمانهم وأعمالهم الصالحة سيُبشَّرون برضوان الله عند أنفاسهم الأخيرة، وسيتمنون لقاء الله من أعماقهم وسيلجون معبر الموت بطمأنينة.

سأل سليمان بن عبد الملك أحدُ الخلفاء الأمويين عالماً من أهل الزهد والتقوى، وهو أبو حازم:

«كيف القدوم على الله؟»

قال: «أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً، وأمّا المسيء فكالآبق "العبد الهارب من سيده" يقدم على مولاه خائفاً محزوناً».

١٠٩. البخاري، الرقاق، ٤١/ ٦٥٠٧؛ مسلم، الذكر، ١٤.



فالقدوم على الحياة الأخرى بالنسبة لعبد عاش حياتَه وكل همّه أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على الإيمان، واجتهد في إتمام العدة للدار الآخرة التي هي الحياة الحقيقية؛ يكون قدومه كسعادة الوصال بعد الغربة. لكن وعلى العكس من ذلك، فالموت بالنسبة للغافلين اللاهثين خلف شهواتهم، وكأنهم لا يعلمون غاية إرسالهم إلى هذه الدنيا، فقضوا أعمارهم دون أن يفكروا تحت ملك من يعيشون، ومن أين قدموا، وإلى أين هم ذاهبون؛ فيكون الموت لهم كأنّه كارثة مرعبة حلّت بهم بغتة.

ويضرب لنا وهب من منبه مثالاً عن هذه الحقيقة فيقول:

كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات، وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه حتى أتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبرا.

ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبرا، فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد السلام، فأخذ بلجام دابته، فقال الملك:

أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيما،

قال: إن لي إليك حاجة،

قال: اصبر حتى أنزل،

قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته، فقال: اذكرها،



قال: هو سر، فأدنى له رأسه فساره وقال:

أنا ملك الموت،

فتغير لون الملك واضطرب لسانه، ثم قال:

دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم،

قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا.

فقبض روحه فخر كأنه خشبة. ثم مضى فلقي عبدا مؤمنا في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال:

إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك، فقال:

هات، فساره وقال: أنا ملك الموت،

فقال: أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته علي، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك،

فقال ملك الموت: اقض حاجتك التي خرجت لها،

فقال: مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى،

قال: فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك،

فقال: تقدر على ذلك،

قال: نعم إني أمرت بذلك،

قال: فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد. فقبض روحه وهو ساجد.[١١٠]

١١٠. الغزالي، إحياء، جـ ٤، ص ٤٦٧، دار المعرفة – بيروت، بدون تاريخ.



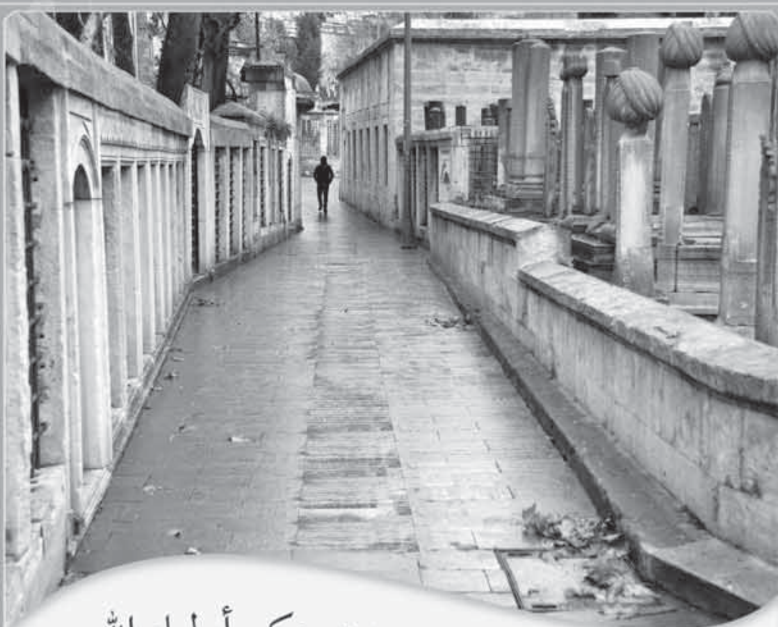
وهكذا، فإنّ حضرة مولانا وأمثاله من عشاق الله سبحانه الذين تهيؤوا للنَفَس الأخير وزيّنوه لم يروا الموت فراقاً وهجراناً بل رأوه ليلة زفاف سعيدة وفرحاً بالوصال }.

جعلنا الله جميعاً من عباده السعداء الذين أعدوا للموت والقبر والآخرة كما ينبغي، وبلغوا رضوانه بإيمان كامل وقلب سليم ووجه أبيض.

آمين!..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رَحِمَهُ الله

٨

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله تعالى – ٨

يسأل الله تعالى في كتابه الكريم فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦–٨)

يقول حضرة مولانا:

«أيها الغافل الذي اتخذ عصيان أوامر الله في شؤونه طبعاً له وعادة! اعلم أنه حتى ذرات جسدك مؤتمرة بأمر الإرادة الإلهية. ذرات جسدك الآن تداهنك وتُظْهِر بأنها تطيعك ولو شاء الله أن تعاديك لباتت كل واحدة منها عدوا لك لدوداً. فلو قال الله للعين: "أَتعبي عبدي" لانتقم ألم عينك منك بكل أنواع الانتقام. ولو عاقب الله السن سترى أنّ السن يشرع في ثني أذنك من شدة الألم ويجعلك تعيساً. افتح كتاب الطب واقرأ عن الأمراض، اقرأ لترى ماذا تصنع جنود الجسد. بما أن روحَ روحِ كل شيء هو الله، فهل من العقل معاداة روح روحك؟ أليست هذه المعاداة ضرباً من الجنون؟».

{إنّ الانسان ومع كونه كائناً عاجزاً لا يقدر على التحكم بكثير من الأمور، فهو عندما يتبع نفسه هواها، ويقع ضحية غفلته، يشرع باعتقاد الوجود والقدرة في نفسه، ويقوم ليعترض على أوامر ونواهي خالقه.

مع أنه لو اضطلع الإنسان الذي يشاقق ربه ذا العلم والقدرة والحكمة اللامحدودة على صور إعجاز الصنعة الإلهية التي في بدنه فقط لأدرك على الفور أنّ عصيان الله تعالى لهو الجهل العظيم والاجتراء عليه، بل هو الحمق بذاته.

فالإنسان محتاج لربه في كل لحظة، محتاج له في مجرد البقاء على قيد الحياة. إذ أنّ جميع أنشطة أعضائنا في جسمنا تقريباً تسير خارج نطاق إرادتنا. وعلى سبيل المثال، نبضات قلوبنا وشهيقنا وزفيرنا وجميع الأعضاء الأخرى، والأنشطة داخل الخلية، وكذلك أيضاً في التناسق والتضافر فيما بينها.

إنّ مليارات الفعاليات البيوكيميائية التي تحدث كل لحظة في عدد هائل من الوحدات ضمن عدد هائل كذلك من المصانع في جسدنا تتم ضمن نظام رفيع المستوى دون أدنى علم منا. وقد برمج ربنا العظيم الذي خلق الإنسان من قطرة ماء كلَّ عضو في جسدنا في صورة رائعة، كتجلٍّ من تجليات علمه وقدرته اللامحدودتين، وجعل هذه الأعضاء تعمل من تلقاء نفسها، وأراد لها أن تعمل بانسجام. أي أنّ كلَّ خلية من خلايانا تؤدي وظيفتها بأمر ربنا وقدرته.

فلو وُكِّلَ لنا توجيه وإدارة أعضاء جسدنا لساعة واحدة فقط، من يدري كم مرة كنا سنعطلها؟ هذه فقط كفيلة بالتعبير عن عجز الإنسان أمام ربه وافتقاره إليه، وبالتالي ضرورة إطاعته والتسليم له سبحانه.



ويسأل الله تعالى في كتابه الكريم فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [١١١]

وبالتالي فالذي يليق بالإنسان الذي خُلِقَ في أحسن تقويم وجُعل أشرف المخلوقات:

- أن يدرك أنه بحكم "اللاشيء" أمام القدرة الإلهية.
- ألا ينسى بأنه وجد بأمر ربه "كُن" وأنه سيفقد حياته بأمر ربه "مُت" وأن يعرف حده.
- أن يعتبر مما تفعله جرثومة صغيرة لا تُرى بالعين عندما يأمرها ربها بالمصارعين ذوي الأجساد الضخمة الذين يقال عنهم أن ظهورهم لا تعرف الأرض "لا يهزمون" كيف تطيحهم أرضاً.
- أن يحمد الله تعالى ويشكره ويذكره ويستغفره ويلجأ إليه بتواضع جم وأدب وتعظيم.

وليس الأمر مقتصراً على ذرات جسد الإنسان، بل إن جميع المخلوقات تؤدي وظيفتها بكل دقة ضمن النظام الإلهي. فياله من عبث، والحال كذلك، أن يتصرف الإنسان الذي هو أكمل المخلوقات بشكل يعاكس الأوامر الإلهية متجاهلاً هذه الحقيقة!...}.

---

١١١. الانفطار: ٦–٨.



يقول حضرة مولانا:

«ينبغي الأسى على بلاء حاصل من ضعف الإيمان، لأنه لا دواء لهذا البلاء».

{إنّ البلاء الذي يؤسى عليه هو الحرمان من الإيمان. فلو لم يملك الإنسان أي شيء في الدنيا فهو في النهاية حرمان ضمن وقت معين. لكن الحرمان من الإيمان سبب للحرمان الأبدي. فلو أغدقت جميع النعم على إنسان محروم من الإيمان، ولو دام ملكه في الدنيا ألف سنة، فيوماً ما سيموت وسيغادر الدنيا بيد خاوية.

لا ننسى أنّ الشمس التي فوقنا هي الشمس ذاتها التي أضاءت قصور وصروح وخزائن من حكم بالظلم على وجه الأرض لمدة من الفراعنة والهامانات والنماردة وأضراب هولاكو وعاد وثمود، ثم أشرقت على خراباتهم بكل عزة. فلا بكت السماوات على أولئك الظالمين الذين تحدوا الله تعالى مغرورين بقوتهم وقدرتهم الفانية، ولا ذرفت عليهم العيون ولا تألمت عليهم القلوب. بل على العكس، تعفنوا في مزابل التاريخ، واندثروا بآهات المظلومين ودعائهم. والآن تسرح البوم والكلاب وتتبختر في الأماكن التي جرى فيها ملكهم ردحاً من الزمن...

أي أنّ من لم ينتقل إلى العالم الأبدي بالإيمان والعمل الصالح هو في الحقيقة مفلس مسكين، ولو سبح في النعم في الدنيا. وبالمقابل، فالإنسان إذا كان صاحب إيمان فهو في الحقيقة يملك



كل شيء، حتى لو لم يملك أي شيء من الدنيا. لأنّ النعيم الذي سيجلبه الإيمان والعمل الصالح هو ملك أبدي. وكما قال النبي ﷺ:

«**اللهم لا عيش إلا عيش الآخره...** » [١١٢]

يعلم المؤمن أنّ الحرمان والأذى والآلام في الدنيا التي هي دار استضافة قصيرة في الرحلة الأبدية؛ لا شيء أمام العذاب في الآخرة. ويعلم في المقابل أنّ اللذة والمتعة والملك في الدنيا لا يساوي شيئاً أمام النعيم الأبدي في الآخرة، لذلك فعلى المؤمن ألا ينظر إلى حال الكفار والفساق المتنعمين، ويحزن لحاله أبداً، ولو كان في فقر وفاقة. ويجب عليه بمقتضى قوله تعالى: ﴿...**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**...﴾ [١١٣] أن ينسى جميع آلامه الفانية بنصيبه من معية الله جل جلاله.

ويجب عليه بمقتضى قوله تعالى:

﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [١١٤] أن يطمئن بنعمة الإيمان.

وما أجمل دعاء عطاء الله الإسكندري كمثال على الطمأنينة التي يمنحها الإيمانُ الحقيقيُ القلبَ حيث يقول:

«رباه ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟».

١١٢. البخاري، الجهاد ٣٣، الصلاة ٤٨، الرقاق ١.

١١٣. التوبة: ٤٠.

١١٤. آل عمران: ١٣٩.



والنتيجة أنّ الايمان دواء لكل بلاء، ولا يمكن لأي ابتلاء دنيوي أن يمسَّ قلباً -ذاق لذة الإيمان الحقيقية وطمأنينته- بشيء من الضيق والكرب. كما أن أكثر من تعرض للأذى في هذا العالم الفاني هم الأنبياء والأولياء والعباد الصالحون على درجاتهم. لكنهم أيضاً هم أكثر الناس طمأنينة.

لم يثنِ الصحابةَ الكرام أي أذى أو معرّة بما لديهم من لذة الإيمان هذه. وسعوا سعياً حثيثاً من ديار إلى أخرى مضحّين بما لديهم لنقل نور الهداية إلى القلوب دون أن يبدوا تعباً أو سأماً. ورموا وراء ظهورهم بفضل حماسة الإيمان وحلاوته المخاوف والمحاذير والشهوات والدنيوية.

يقدم الله تعالى لنا المهاجرين والأنصار في الآية المئة من سورة التوبة كجيل يحتذى به، ويمدح من اقتفى أثرهم من المحسنين. فها هم المؤمنون أهل الإحسان الذين اتبعوا ذلك الجيل المثالي يعيشون بقلوب ساكنة مطمئنة لعلمهم أن ما نالوا من أذى ومشقة هو إمّا تكفير للسيئات أو رفع للدرجات. يقول النبي ﷺ:

«عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له» [١١٥]

١١٥. مسلم، الزهد، ٦٤/ ٢٩٩٩.



لذلك فالمؤمن هو الإنسان السعيد الذي يعلم كيف يفوز بربح معنوي من كل امتحانات الحياة حلوها ومرها. أي أنّ ما يبدو لأهل الدنيا أنه ضرر وخسارة ويوجب عليهم الهم والحزن من الأمور هي في نظر المؤمنين العارفين وسائل فوز أخروي توجب الصبر والرضا بل والشكر.

أمّا القلوب المحرومة من الإيمان بالله واليوم والآخر فهي تفور أمام أبسط محنة، وتخلط الأمور ببعضها وتشتكي وتعصي، وذلك لخلوها من أفق القلب المؤمن. لذلك فالحرمان الذي يستحق الأسى لهو الحرمان من منبع سكينة وطمأنينة عظيمتين كـ "الإيمان"}.

يقول حضرة مولانا:

«ليس من السهل أن تكون شمعة. حتى تبث النور عليك أن تحترق أولاً».

{من الضروري حتى يبلغ الإنسان الكمال أن ينضج عالَم قلبه. ونضوج القلب يجعل من الضروري ترك ما تهوى النفس، وتربيتها على ما لا تهوى من الشدائد. وما أجمل ما عبر به الشاعر والمفكر محمد إقبال عن هذه الحقيقة بأسلوب تمثيلي إذ قال:

«في إحدى الليالي سمعت في مكتبتي عثّةً "سوس" تقول لفراشة تدور حول الضوء: لقد استوطنت كتب ابن سينا ورأيت



مؤلفات الفارابي "وقرضت سطورهم ولكن" لم أفهم بشكل من الأشكال فلسفة هذه الحياة. ولا شمس لي تضيء أيامي...

لن تجد في أي كتاب من الكتب جواباً حسناً لطيفاً كجواب الفراشة نصف المحترقة رداً على شكوى العث حيث قالت: انظري، لقد أحرقت أجنحتي من أجل هذا العشق، والتلوع بالحب هو من يجعل الحياة أكثر حيوية، والاحتراق بنار العشق هو من يرفرف بالحياة..».

هذا يعني أنه من المستحيل أن تستضيء أو تضيء قبل أن تحترق. وجميع أولياء الله أيضاً هم أرواح سامية بلغت الكمال بعد أن احترقت بحب الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويمكن أن نرى صور هذا الاحتراق لدى جميع أولياء الله. فها هو مولانا الذي امتلأ قلبه احتراقاً بالعشق الإلهي اللامحدود يلخص مراحل حياته بثلاث كلمات:

«كنت غضاً فنضجت فاحترقت...».

فقد عبّر حضرة مولانا عن حاله لما كان مُدرّساً في قمة العلوم الظاهرية في مدرسته السلجوقية بقوله: "كنت غضاً "، وعبّر عن حاله لما بدأ يضطلع عياناً على أسرار الكائنات بعد أن حاز تجليات معرفة الله بقوله: "نضجت"، وعبّر عن حاله في فنائه بالحب الإلهي بقوله: "احترقت".



وقد عبّر عاشق الله ورسوله الشاعر فضولي عن شكواه الصادرة عن قلبه المحترق بقوله في مطلع قصيدته الشهيرة "الماء":

لا تذرفي يا عين دمعك على نار العشق في فؤادي

ليست الماء بمن يطفئ حرَّ نار مثل هذي...

وقد وجد الشيخ الجليل أسعد الأربيلي الكمال داخل نار عشقاً كهذا، فبات يرى صور هذا الاحتراق أينما قلّب طرفه، فهو يقول:

لما تجلى جمالك يا حبيبي صار الربيع بعشقك ناراً

حتى البلابل والأزهار والسنابل والترب والشوك كلها صارت لهيباً

أمّا أشعار يامان ده ده الذي كان مسيحياً فيما مضى، ثم اشتعل بحر العشق في قلبه بشرارة من العشق المحمدي، والذي احترق والتاع كمؤمن ذي عين دامعة وعاشق للنبي ﷺ؛ فهي صورة أخرى من صور احتراق القلب ذاته، فما أجمل أبياته العميقة المحترقة هذه حيث يقول:

لو ظمئت ومت في الصحاري الملتهبة لا أتألم

تثور البراكين في صدري ولا أشعر بالرطوبة

ولو خضت البحار

لو أمطرت السماء لهباً وارتشفت منه فلا أشعر

أسعدني بجمالك فقد احترقتُ يا رسول الله...



والنتيجة أنّ أولياء الله وجدوا أنّ الارتماء في نيران الألم في سبيل القرب من الله سبحانه وتعالى كإبراهيم كمالاً ومنة عليهم. وقد جعل الله تعالى أيضاً تلك النار برداً وسلاماً عليهم، وجعل نار العشق الإلهي في الدنيا أكبر وسائل الرحمة التي تطفئ الغضب الإلهي في الآخرة.

وإنّ ما ينقذ المؤمنين من أوحال العُجب ويرفعهم إلى القمم المعنوية:

- جعل الآلام بعشق الله عسلاً ورؤية العذابات رحمة والمشقات نعمة.
- تبديد الابتلاءات والمصائب بالصبر، والنسيان بالذكر، والكفر بالشكر والمعصية بالطاعة، والبخل بالجود، والأنانية بالإيثار، والشبهة باليقين، والرياء بالإخلاص، والكبر بالتواضع، والذنوب بالتوبة، والغفلة بالتفكر.
- تلقي الأذى والمشقات النازلة بالابتسامة اعتقاداً بأنها وسائل تزكية وتربية من الله تعالى.

فكما تحتاج الفواكه غير الناضجة لحرارة الشمس حتى تنضج فكذلك القلوب تنضج وتبلغ الكمال من خلال تربيتها على الآلام.

ألسنا نرى بعض الحجارة على الشواطئ؟ ضربتها الأمواج لقرون فحتت أطرافها وخلصتها من شعثها واعوجاجها، وكذلك صخر الغرانيت قسى ومتُن، فهؤلاء باتوا لا ينكسرون بسهولة.

ومثله تماماً تلك القلوب التي نضجت معنوياً بالامتحانات الإلهية متُنت بشكل فريد. فلا تكسِر بعد ذلك ولا تُكسَر، أي لا تَجرَح ولا تُجرَح. كما أنّ أول درس في التربية الصوفية هي ألا تجرح، وآخر درس فيها ألا تُجرَح... }.

يقول حضرة مولانا

«الأحمق يتتبع عيوب الناس وعوراتهم بشراهة فيراها ويشيعها. ولكنه بسبب حماقته لا يرى عيوبه قَدْر ذرة».

{على المؤمن ألا ينشغل بعيوب إخوانه في الدين وعوراتهم بل ينبغي عليه أن ينشغل بضعفه ونقصانه. وعليه أن يعلم أنّ الغضب على الآخرين وانتقادهم لا يزكّيه. لأنّ عدم رؤية المرء أخطاءه واتهام الآخرين هو غفلة تشبه "من يرى القشة في عين أخيه ولا يبصر الخشبة في عينه".

وفي الأصل، فإنّ المؤمن العاكف على عيوبه لا يجد مجالاً للاشتغال بعيوب الآخرين. وهذا الانشغال يكفي القلب ويزيد، لأنّ فؤاد المؤمن الذي يرعى بحق دستور "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا" يرتعش من رهبة القرار الإلهي:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [١١٦]

١١٦. الزلزلة: ٧-٨.

وينشغل من خلال هذا الهاجس بعيوبه.

فإنّ أعرابياً عندما تلا رسول الله ﷺ هذه الآيات سأله متعجباً: «يا رسول الله أمثقال ذرة؟»، قال: «**نعم**»، فقال الأعرابي: واسوأتاه (ثم قام وهو يقولها) فقال النبي ﷺ:

«**لقد دخل قلبَ الأعرابي الإيمانُ**»...[١١٧]

هذا يعني أنّ التفكر بيوم القيامة حيث سيوضع في الميزان، للحساب، حتى العيوب التي تبلغ مثقال ذرة، والتي لا تبدو مهمة اليوم، والانشغال بعيوبنا هو شاهد على الإيمان الحقيقي. أمّا نسيان ذلك، وتتبع عيوب الآخرين فهو عرَضٌ من أعراض ضعف الإيمان.

ويبين الله تعالى إذ يقول: ﴿...**وَلَا تَجَسَّسُوا**...﴾[١١٨] أنّ البحث عن عيوب وعورات عباده الشخصية السرية، وإذاعتها أعظم جرماً من العيوب نفسها.

كان الشيخ الجليل عبد الله الدهلوي أحد أولياء الله إذا ذُكر في مجلسه شيء من عيوب أحد إخوانه في الدين كان ينهى عن ذلك ويقول: «إن ما قلت يليق بي أكثر».

وبذلك كان يمنع من حوله من الغيبة، ويذكرهم بضرورة التركيز على نقائصنا وعيوبنا لا عيوب الآخرين الشخصية.

---

١١٧. السيوطي، الدر المنثور، ٨/ ٥٩٥.

١١٨. الحجرات: ١٢.

من جانب آخر، يجب ألا ننسى أنّ كلّ نازلة تستند إلى أسباب باطنية كانت سبباً فيها، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [١١٩]

إذاً يجب علينا أن ننظر لما ينزل بنا من المصائب من الناحية التالية أيضاً:

- ماذا لدينا من عيوب وتقصير أمام الكوارث المادية والمعنوية يا ترى؟ وفي أي صورة من صور العبودية يجب أن نظهر لطمأنينة المجتمع وسكينته؟
- هل نؤدي الوظائف التي توجبها علينا الشخصية الإسلامية ونعمة الإيمان كما يجب؟ وإلى أي مدى تعكس أحوالنا وأعمالنا صورة المسلم المثالي؟
- كم نؤثر في القلوب إيجاباً وسلباً؟ وكم نستطيع بأقوالنا وأفعالنا أن نكون مفاتيح للخير مغاليق للشر؟ وكم نستطيع أن نأمر بالحق والخير وننهى عن الباطل والشر؟
- كم نستطيع أن نتفكر بأننا مسؤولون أيضاً عن سير المجتمع بحسب وسعنا؟ أم أننا نقول معاذ الله "لتعش الأفعى التي لا تمسني ألف عام"؟

---

١١٩. الروم: ٤١.



- هل نستطيع أن نكون مع الحق والعدل دائماً حتى ولو كانا علينا؟ أم أننا ننجر خلف التنازل عن الحق في سبيل المصالح الدنيوية؟
- كم نستطيع أن نفضّل الإنصات إلى صوت الضمير في صراعات الضمير التي تتكرر بكثرة في يومنا هذا؟ وعندما نبقى بين خياري الدنيا والآخرة كم نستطيع أن نقول إنّ "الحياة الأصل هي حياة الآخرة"؟
- هل نستطيع أن نحاسب أنفسنا الحساب الحقيقي؟ أم أنّ حسابنا يحتاج لوحده حساباً؟...

والنتيجة، إنّ وظيفتنا كمؤمنين هي "مؤاخذة أنفسنا ومسامحة غيرنا". أي النظر في حالنا بجدية بدلاً من إضاعة الوقت بنقد عيوب الآخرين الشخصية. ومعرفة أنّ أكثر أخطائنا وعيوبنا خفاءً ستعرض أمامنا في الميزان، والانتباه لهذه الأخطاء والعيوب من الآن، والتوبة منها والاستغفار من أجلها بصدق، والاجتهاد بالعمل الصالح من أجل المغفرة}.

جعلنا الله بلطفه وكرمه في عباده الصالحين الذين أحبهم ورضي عنهم وحافظ على إخلاصهم.

آمين!..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رحمه الله

٩

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله – ٩

يقول حضرة مولانا:

«انظر إلى نهر الحياة الأبدي، واسكب الماء من الكأس، اسكب عمرك الفاني في النهر الأبدي، هل ترى النهر يفيض؟».

«يتخلص ماء القِدر من كينونته الفردية، عندما يمتزج ويصير من ماء النهر».

«عندها، تتلاشى صفات الماء في القِدر، وتبقى ذاته، فلا نقصان بعدها، ولا يتعكر ولا ينْتَن».

{يقول شُرّاح المثنوي أن المقصود بالنهر حياة الآخرة الأبدية وأن المقصود بماء الكأس حياة الإنسان الفانية. وإن سكب الإنسان كأس عمره في نهر الخلود هو إطاعة لأمر "موتوا قبل أن تموتوا". أي تبديد الشهوات النفسية والأطماع الدنيوية قبل وقوع الأجل اللازم، والتصرف كالميت أمام مغريات الذنوب. وإطاعة الله تعالى بتوكل وتسليم تامّين، وجعل النعم الفانية رأس مال النعيم الباقي.

قال مولانا جلال الدين الرومي: «العالم هو مثل المغناطيس يجذب كل القش، ولكن حبة القمح الممتلئة يتحرر من الانجذاب لها».

لا شك أنّ العمر كنهر سريع الجريان، بينما مُنح الإنسان رأس مال محدود. وإنّ رأس المال المحدود هذا، والذي يعتقد من يعيش في غفلة أنه لن ينتهي أبداً، هو قصير وضئيل وجزئي لدرجة أنه لا يمكن قياسه بخلود الآخرة. وها هي الآية الكريمة تخبرنا عن إدراك الإنسان لهذه الحقيقة:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [١٢٠]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه** – وأشار يحيى بالسبابة – **في اليم، فلينظر بم ترجع؟**» [١٢١]

إنّ نعمة العمر، كسائر النعم الأخرى، فضل من الله تعالى، وهو رأس مال العبد الوحيد حتى يفوز بالنعيم الأبدي. لذلك فإنّ أكثر التجارات ربحاً في هذه الدنيا هي كسب الباقي بإعطاء الفاني، وكسب الكلي بإعطاء الجزئي، وكسب البحر بإعطاء القطرة. كما أنّ موطن هذه القطرة الأصلي هو البحر. فإنّ إعادة ما جاء من البحر إليه ليس بالأصل تضحية. لأنّ كل قطرة ستعود لا شك إلى البحر في يوم من الأيام شاءت أم أبت. وبالتعبير القرآني:

﴿... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٢٢]

---

١٢٠. النازعات: ٤٦.

١٢١. الحاكم، المستدرك، جـ ٤، ٣١٩/ ٢٨٥٨.

١٢٢. البقرة: ١٥٦.



إنّ دعاء الذوات العارفة: "يا رب منك أتينا وإليك نعود"، الذي يصعد إلى الله ﷻ، يعكس شعور القلوب التي تعمقت في هذه الحقيقة الإلهية.

وعليه، فالمعرفة والنباهة الحقيقيتين هي أن يصب العبد عمره الفاني، الذي هو بحكم ماء الكأس، بمحض إرادته ورغبته بسخاء في بحر الخلود. وهكذا، ينال سهماً من سر "الموت قبل الموت". لأنه، وبعبارة حضرة مولانا:

«يا لسعادة ذاك الذي مات قبل الموت، فقد وجدت روحه ريح بستان الحقيقة...».

وعند النظر من نقطة أخرى، نجد أنّ كأس الماء ذاك هو منصب ومكانة الإنسان التي يستند إليها ويثق بها، قوته وقدرته. أمّا السيادة الإلهية فهي قدرة وعظمة لا محدودة تفوق الإدراك وتحيط بالكائنات ولا تساوي أمامها الدنيا الضخمة مقدار ذرة غبار.

وكأس الماء هو أيضاً كل العلوم التي يمكن أن يصل إليها البشر، والعلم الإلهي بحر لا نهاية له. ومثال على ذلك: أثناء الرحلة التي أظهر فيها الخضر لموسى الحوادث العجيبة مجهولة الحكمة، عبّر عن هذه الحقيقة حديث النبي، حيث يقول النبي ﷺ:

«...لما ركبا في السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر يا موسى ما نقص



علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر...» [123]

وكأس الماء الذي في يد الإنسان هو أيضاً ما ائتمن الله تعالى العبد من مال وملك وثروة بهدف الامتحان. ومُلك الله حكمه أبدي، حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [124]

﴿...وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [125]

فلم ينقص ما أكلته جميع المخلوقات منذ القدم وحتى اليوم وما شربته وما استخدمته وما استهلكته من خزائن الله تعالى مثقال ذرة.

والنتيجة، إنّ كأس الماء الذي بيد الإنسان هو جميع النعم التي وهبها الله سبحانه له، وجميع قدراته وطاقاته. ونهر الحياة يجري نحو بحر خلود الله. فبمقدار ما يستطيع الإنسان أن يصبّ بإرادته من روحه وماله وعلمه ومعرفته وجميع إمكاناته في هذا النهر يكون فانياً في بحر الخلود. وبمقدار ذلك ينال نصيبه من سر الفناء في الله جَلَّجَلَالُهُ}.

---

١٢٣. البخاري، التفسير، ١٨، ٣٤٠١.

١٢٤. آل عمران: ١٨٩.

١٢٥. إبراهيم: ٣٤.

يقول حضرة مولانا:

«هل يترك الطفل البصلة ذات الرائحة من يده قبل أن يرى التفاحة؟».

{يتلهى الأطفال ويسعدون بالألعاب الصغيرة والبسيطة وذلك لكونهم في طور التعلم. لكن ومع تكامل البدن يزداد مستوى الملكات الذهنية والقلبية. وتسقط تلك الألعاب البسيطة مع الوقت من العين والقلب. فلعب إنسان ناضج بتلك الألعاب البسيطة يتلقاه الناس بالتعجب والازدراء. والله تعالى يحب من الإنسان أن ينضج معنوياً، وأن يبتعد عن متع الدنيا البسيطة والسفلية، وأن يتجه نحو نعيم الآخرة الحقيقي والأبدي. ولذلك يقول الله ﷻ:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[١٢٦]

فالدنيا من هذه الجهة، بالنسبة للنفوس الخام التي لم تبلغ الكمال، عبارة عن سراب مخادع يبدو كالماء. وهي كسكاكر يعشقها الأطفال، فحتى لو كانت من الخارج ذات لون جميل أخّاذ فهي من الداخل حامضة فاسدة. والدنيا عند الله ﷻ لا تساوي جناح بعوضة. لذلك، فلا قيمة عند الله لمن منح الدنيا قيمة لم يمنحها الله ونسي الآخرة. فَرِضَا الله، بل وحتى أصغر النعم الأبدية التي عنده سبحانه، أثمن من أن تملك الدنيا بأسرها.

١٢٦. العنكبوت: ٦٤.



وعلى الرغم من ذلك، فلا فرق بين إدراك من غرق في الدنيا وإدراك الطفل الذي ظن أنّ البصلة التي في يده ذات الرائحة ألذ الطعام، لأنه لم يعرف ألف نوع ونوع من الطعام اللذيذ الذي يفتح الشهية. ويحاول كذلك حضرة مولانا إيقاظ ابن آدم الذي اتخذ ما ينتظره من النعم العظيمة والنعيم الأبدي وراءه ظهرياً، وجعل قلبه أسيراً لنجوم الدنيا الفانية ومحباتها الذاهبة وزخرفها الكبير، يحاول إيقاظه من غفلته من خلال هذا التشبيه حيث يقول:

«الإنسان "الغافل" باع نفسه بثمن بخس، لقد كان كإستبرق ثمين فجعل نفسه رقعة في قميص».

لذلك فيا لها من حماقة أن يطمع ابن آدم في الشهوات المؤقتة، وأن يظن شقاءه نعيماً، وأن يخرّب الآخرة الأبدية لإعمار الدنيا التي لا تطول ثلاثة أيام، بدلاً من أن يتوجه إلى مولاه العظيم الذي وعده نعماً جليلة كالجنة ورؤية جماله سبحانه... يقول مالك بن دينار:

«في أحد الأيام سألت الحسن البصري: ما أسوأ شيء في الدنيا؟. فقال: موت القلب. قلت: لماذا يموت القلب؟. فقال: من حب الدنيا "أي من أن تكون عبداً لأهواء الدنيا وشهواتها المؤقتة الفانية"».

وما أحكم عبارة رجل آخر من أولياء الله حيث يقول:

«محبو الدين لم يخرجوا من الدنيا، أما محبو الدنيا فقد خرجوا من الدين».



أي أنّ التدين والزهد والتقوى لا يعنى الانزواء وترك الحياة، بل هي كما فعل سليمان، إخراج حبها من القلب، وعدم التعلق بها، بينما تبحث عن نصيبك منها. لأنّ حبّ الدنيا وملذاتها إذا ما أحاطت بقلب وأسكرته كان من الصعب جداً أن يلتفت للدين، أو يدرك الحقائق الإلهية تمام الإدراك، أو يتلذذ بالعبادة والطاعة. لذلك وحتى لا نُصاب بمرض السكون إلى الدنيا على قلوبنا أن تتعمق في الزهد والتقوى}.

يقول حضرة مولانا:

«لا يدنس بحر ولغت الكلاب فيه».

{أولئك الذين يهاجمون القيم المعنوية ويتطاولون بألسنتهم على المقدسات والقيم العلوية والأنبياء وأولياء الله ذوي القدر العظيم، أولئك المهاجمون لا يمكنهم أن يمسّوا عظمة هؤلاء العظماء وشرفهم. ولن يجنوا من مواقفهم السلبية هذه إلا زيادة في سفالتهم وسقوطهم، وزيادة من عذابهم في الآخرة، أي أنهم زادوا من شدة عذاب جهنم على أنفسهم.

إضافة إلى أنّ المؤمنين في هذه الحال مضطرون إلى إبداء مواقفهم التي يوجبها البغض في الله ضدّ أولئك الظالمين. لأنه بهذه الصورة يكونون قد تعرضوا لامتحان في غيرتهم الدينية في خصوص شخصية الإسلام ووقاره.



وكمال الإيمان الحب لأهله "أي حب الله وحب من يحبه"، والبغض لمستحقه "أي بغض أعداء الله ورسوله"، كما أنّ سورة المسد هي أكثر تعاليم الله تشخيصاً في ضرورة بغض من يستحق البغض، أي بغض من لم يحبه الله ﷻ}.

يقول حضرة مولانا:

«يا من أضرّ بجوهر إيمانه في سبيل الخبز، أيها المسكين الذي باع كنزاً بشعيرة: نمرود لم يذلل قلبه لإبراهيم لكنه سلّم روحه لبعوضة».

{يا لبيع الآخرة التي هي مكان النعيم الأبدي من أجل تحصيل متاع الدنيا الفانية؛ من انخداع مؤسف، ومن حمق مؤلم. يقول أبو حازم أحد علماء السلف:

«إنّ كل إمكان (ملك، جاه، منصب... إلخ) لا يقرِّب من الله ليس إلا مصيبة على العبد».

ويقول أحد كبار أولياء الله جعفر الصادق:

«أوحى الله تعالى للدنيا أن اخدمي من خدمني، واستخدمي من خدمكِ».

إنّ البخلاء الذين يتجنبون الإنفاق لأنّ قلوبهم وقعت أسيرة لثروة الدنيا؛ والكسالى البعيدين عن الطاعة والاجتهاد لعدم تركهم راحة الجسد؛ والغافلين الذين تهربوا من الخدمة والتضحية في سبيل الله، لعدم قدرتهم على هزيمة وساوس نفوسهم، سيأتي



يوم ويضطرون لإضاعة نفوسهم وثرواتهم التي طالما خافوا على ضياعها في سبيل مآرب دنيئة وبسيطة للغاية. أي أنّ من لم يجرؤوا على الغوص في بحر الآلام الكبيرة والعلوية الواسع في سبيل الله ربما يغرقون يوماً ما في تجمع ماء صغير.

كما أنّ النمرود الذي اتبع نفسه المغرورة، ورفض الإيمان بالله وطاعته، والذي لم تتسع السماء والأرض لكبره، فقام يدعي الألوهية، لما جاءه الأجل عجز عن القضاء على بعوضة هزيلة، وخضع للقهر الإلهي بعجزه.

ولما وصل جيش أبرهة المغرور، الذي خرج من صنعاء لغرض قبيح وهو هدم الكعبة العظيمة، جوار مكة أصبح كعصف مأكول، ليس بالسباع والنمور والوحوش القادمة من الصحراء، بل بحجارة رمتها طيور صغيرة لا يُلقى لها بالاً.

وكالعاقبة الأليمة لكل ظالم متكبر، عندما ذرت رياح الأجل حطام عمر الغافلين، لا ملكهم الذي تركوه خلفهم في الدنيا بكى عليهم، ولا الآخرة التي وجدوها أمامهم لاقتهم بوجه باسم. وإنّ عاقبة الظالمين المؤسفة هذه صارت أمثلة معبّرة تُعرض على مسرح التاريخ، فيما يتعلق بالخزي الذي وقع ضحيته هؤلاء الحمقى.

ومن هذا المنطلق، فالنعيم والملك الحقيقي في إدراك العبد حدّه أمام الله وعبوديته وعجزه وانكساره واغتنام الفرصة في التنازل عن النفس طوعاً في سبيل الله، حيث يقول النبي ﷺ:



«الكيّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله» [127]

ويجب ألا ننسى أنّ النعيم والطمأنينة الحقيقيتين إنما تكونا في تركِ السعي خلف شهوات النفس وأطماعها التي لا تعرف نفاداً، وفي كبحِ جماحها. ومن الممكن أيضاً جعل النفس مَرْكَبَاً في رحلة الاتصال بالله، وإطلاق العنان لها في سعيها إلى ذلك حتى آخر نفس.

وما أجمل ما لخَّص به الإمام الغزالي هذه الحقيقة إذ قال:

«النفس راحلة الروح، فإذا أطلق الإنسان العنان لها وتبعها حيث اتجهت فهلاكه محتوم... لذلك أمسك بعنانها بشدة واعمل على الاستفادة من راحلتك "لأنّ العبودية لله إنما تؤدّى من خلال الجسد، أي من خلال راحلة النفس"».

وروح المؤمن الموفق لتزكية نفسه دائماً ما، تكون قوية وصحيحة ومطمئنة.

كما أنّ الأنبياء والصحابة الكرام وأولياء الله والمؤمنين الصالحين قد نشؤوا في امتحانات حياتهم مع الآلام والمشقات العظام. لكن، وعلى الرغم من هذه الشدائد المادية من المنظور الجسدي، فقد عاشوا على قمم نعيم القلب وسكينة الفؤاد وراحة الضمير.

١٢٧. الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.



لذلك فإنّ سرّ السعادة والطمأنينة لدى المؤمن لا يكمن في السعي إلى إشباع النفس التي لا تشبع أبداً، بل يكمن في تخليصها من العُجب والأنانية ثم تربيتها.

ويالها من نصيحة حكيمة تلك التي أوردها يوسف خاص حاجب في كتابه كوتادغو بيليغ حيث يقول:

«يا صاحب العلم الكبير! لا تكن أسير نفسك! لأنها إن أسرتك فلن ترضى بغير دينك فدية...»}.

يقول حضرة مولانا:

«اعلم جيداً أنّ الجوع مَلِك الدواء، تبنّى الجوع بروحك ورأسك، ولا تستحقره، فكم من الأسقام تبرأ بالجوع، وحتى الطعام الحسن لا يعجبك ما لم تشعر بالجوع.

سأل رجل رجلاً كان يأكل خبزاً قديماً بشهية كبيرة:

- لماذا تأكل هذا الخبز القديم بهذه الشهية الكبيرة؟

فأجابه الرجل:

- لقد زاد الجوع بعد الصبر إلى ضعفين، وأصبح خبز الشعير القديم هذا لذيذاً كالحلوى، وبهذا صرت آكل الحلوى دائماً إضافة إلى صبري».

{الجوع يلين القلب وينيره، والشبع المفرط يقسي القلب ويحيله مظلماً. الجوع يحجز النفس عن الطغيان ويعينها على



التوجه للحق والخير، والشبع المفرط يأتي على المشاعر الروحانية فيثلمها ويضيق على الروح ويسد قنوات الحكمة لدى الوعي والإدراك.

وكان الشيخ شبلي يؤكد هذه الحقيقة إذ يقول:

«كلما جعت فتح على قلبي باب من الحكمة».

ويقول أبو سليمان الداراني:

«لكل شيء صدأ، وصدأ القلب كثرة الطعام، وكل من يكثر من الطعام يجد أنواع البلاء الستة:

١. لا يستلذ بالصلاة التي يؤديها.
٢. يصبح كثير النسيان.
٣. تقل شفقته، لأنه يظن الآخرين شبعى مثله.
٤. يتكاسل عن أداء الطاعات والعبادات.
٥. تغلب عليه شهوته.
٦. يذهب إلى الخلاء عندما يذهب المسلمون إلى المسجد».

من هذا المنطلق، ينبغي من أجل الطمأنينة المادية والمعنوية تجنيب النفس الشبع المفرط. كما أنك تجد كثيراً من الناس الذين يعيشون في يومنا هذا في وفرة من ناحية الإمكانات المادية مبتلين بأمراض نفسية وجسدية وبعلل عدم الطمأنينة وعدم الراحة وعدم الرضى وعدم الشكر والغفلة. وإنّ أحد أهم أسباب هذه العلل هو

تغذية النفوس بإفراط. وعلاج ذلك؛ تجنب المال الحرام والمشبوه، بالإضافة إلى استعمال مقدار الكفاية من النعم الحلال.

إنّ العبد المتعفف الصابر الكابح جماح نفسه يكتفي برزق قليل ضمن نطاق الحلال، ويرتاح به فؤاده. أمّا الشره الذي لا يعرف ما هو الجوع فهو لا يعرف قيمة لنعمة من النعم، ويبدأ بعدم التلذذ حتى بأشهى الأطعمة. لهذ السبب، يجب على الأثرياء من أجل سكينة فؤادهم وموازناتهم الروحية أن يعتنوا بالفقراء ويهتموا بهم، وأن يكونوا إلى جانب المآتم، وأن يعتبروا بالنظر إلى مشاهد الفاقة. وإلا، فإنّ الأثرياء لن يسلموا من قسوة القلب بنسيانهم الرحمة والشفقة.

وللشيخ سعدي الشيرازي ذكرى معبّرة فيما يتعلق بالحساسية القلبية التي ينبغي على المسلم التحلي بها:

في إحدى السنوات وقع قحط شديد في الشام، وأصاب الناسَ فقرٌ شديد. وفي تلك السنة زاره صاحب له غني، فعجب لما رآه هزيلاً شاحباً بعد أن كان قبل القحط قوياً عظيم الجثة، فسأله عن سبب تحول حاله، فحزن صاحبه على سؤاله، وقال له متعجباً:

«إذا كنت لا تعرف سبب همي فيا لها من غفلة، وإن كنت تعرف فلماذا تسأل؟ ألا ترى أنّ المصيبة بلغت ما بلغت...».

فقال له الشيخ سعدي:

«أعرف لكن لماذا أنت حزين كل هذا؟ أنت تملك كل شيء...».



فقال له صاحبه الذي هو من أهل الكمال:

«أيهنأ قلب إنسان يرى إخوانه في الدين يغرقون في البحر وهو على الشاطئ؟ لقد شحبت لما وقع فيه المسلمون من البلاء... فكلما رأيت حال إخواني في الدين المساكين المؤلمة لا أستسيغ لقمة أضعها في فمي، وكأنني أحتسي سماً. كيف يستمتع إنسان بين الورود وهو يرى أبناء جنسه في الشقاء، وكلما بكى أحدهم دمعت عيني...».

أمّا نحن فلا بد من أن نحاسب أنفسنا حساباً عميقاً حول مقدار حساسيتنا القلبية هذه نحو إخواننا المسلمين المظلومين في العالم الإسلامي الذي غدا اليوم كأنه مكان متفحم. لأنّ هذا الأمر مسؤولية أخوّة في الدين مهمة للغاية بالنسبة لنا جميعاً، وهو وبال أُخروي.

ويجب ألا ننسى أنّ أحد الأصناف السبعة التي ستحتمي بظل العرش يوم القيامة حيث لا ظل، هم أخوة الدين الذين أحب بعضهم البعض في الله ﷻ. وإنّ أداء حق هذه الأخوّة مرتبط بالتضحيات التي تتقدم في الأوقات العصيبة مثل يومنا هذا. لذلك، فإنّ دعاءنا وإنفاقنا وتضحياتنا التي سنقدمها من أجل إخواننا في الدين، المظلومين والمكلومين ستكون بإذن الله أجمل تعبير عن حمدنا وشكرنا لربنا سبحانه}.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الصالحين الذين يتألمون لآلام إخوانهم في الدين، ومن أهل الخدمة الكرماء المضحين الذين ينفعون الأمة المحمدية بيدهم ولسانهم وقلبهم. آمين!..





مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا

جلال الدين الرومي رحمه الله

١٠

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ١٠

إنّ أولياء الله قالوا: «ليس العيد لمن لبس الجديد، إنما العيد لمن أمن عذاب الله».

يقول حضرة مولانا:

«يوم القيامة هو عيد أضحى مرعب للثيران الرقشاء، أي للكافرين والفساق ذوي الفكر الخبيث، ذلك اليوم هو مأتم للثيران، ولكنه يوم عيد للمؤمنين».

{حتى نستطيع أن نستقبل الموت، بسرور كسرورنا باستقبال العيد، ينبغي أن نجعل روحنا ومالنا في هذه الدنيا أضحية لله تعالى. فيوم القيامة بالنسبة للغافلين الذين لم يستطيعوا أن يضحّوا بروحهم ومالهم لله تعالى في هذه الحياة الفانية، ولم يخضعوا للحقائق الإلهية، وتكاسلوا في أداء وظائف عبوديتهم، وركضوا خلف الحرام، ولم يستطيعوا ضرب عنق نفوسهم؛ سيكون يوم تضحية مخيف.

فالموت سيلقى كلاً على صفة تتناسب مع حياته التي عاشها: فسيلقى بعضَهم كسعادة صباح يوم عيد، وسيلقى بعضَهم الآخر كرحلة عذاب مليئة بالكوابيس المرعبة...

لهذا السبب، فلنقضِ أعمارنا بحماس العبودية وآدابها؛ حتى تكون آخرتنا يوم عيد أبدي. لأنّ العيد الحقيقي: هو يوم يُعرَض المؤمن على الله تعالى ناجحاً في امتحان التقوى في الحياة الفانية، كما أنّ أولياء الله قالوا:

«ليس العيد لمن لبس الجديد، إنما العيد لمن أمن يوم الوعيد»}.

يقول حضرة مولانا:

«**إنما أنار القمرُ لصبره على الليل**».

«**إنما نالت الزهرة رائحة عطرة ولونًا لطيفًا لتحملها صداقة الشوك وصبرها عليه**».

{ يأتي "الصبر" على رأس الحكمة التي تُعلِّمُ ارتشاف الألم. فالألم خليل العشق وصديق دربه، وتحمُّل الألم والابتلاءات تُنضِج الإنسان}.

يقول حضرة مولانا:

«**لقد علّمني شمس -قُدِّسَ سرّه- شيئًا: "إن كان ثمة في العالم مؤمن يبرد فلا حق لك في الدفء". فإذا بَرَدَ مؤمن على وجه الأرض، فلستُ أدفأُ بعدها...**».

{لا يفهم صاحبَ الألم إلا من تألم، ولا خليلَ للمتألم إلا متألم مثله. وعلى المؤمن أن يقف بجانب المفجوعين وإلى جوار من ليس لهم أحد. يقول النبي ﷺ:

«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» [١٢٨]

«ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعانا وجاره جائع إلى جنبه» [١٢٩]}.

يقول حضرة مولانا:

«زوروا أصحابكم بكثرة، فالطرق التي لا يُمشى عليها تمتلئ بالأشواك والحشائش».

{عن أنس بن مالك رضي الله عنه:

«كان رسول الله ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عاده» [١٣٠]

إنَّ تزاور الإخوان في الدين وسؤال بعضهم بعضاً عن أحوالهم، وتبادلهم الهدايا ولو بالأشياء البسيطة، وتشاركهم في أفراحهم وأتراحهم؛ وسيلة لنيل رضى الله سبحانه وتعالى، وتقوية أواصر الأخوّة والصحبة والمودة. وإذا وقع خلاف ذلك من الإهمال وعدم بذل الجهد الكافي في ذلك فستكون النتيجة خراب روض الأخوّة، وانتشار أشواك الخلاف والتنافر والخصومة}.

---

١٢٨. البخاري، الأدب، ٢٧/ ٦٠١١؛ مسلم، البر، ٦٦/ ٢٥٨٦.

١٢٩. الحاكم، المستدرك، جـ٢، ص١٥/ ٢١٦٦.

١٣٠. الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ ٢، ص٢٩٥/ ٣٧٦١.



يقول حضرة مولانا:

«**الجميع صاحبك حال الصحة والعافية والطمأنينة، أمّا في حال الشدة والكرب فلا خليل ولا صاحب إلا الله ﷻ**».

{الصحبة الحقيقية هي الصحبة عند الشدة، لكن كثيراً من الناس صاحب وقت الرخاء. أمّا الصحبة الحقيقية فهي مشاركة الصاحب ألمه وقت المصيبة بقدر مشاركته أفراحه وقت الفرح.

والصحبة الحقيقية أن تكون حبيباً لا وزراً، أي أن تحمل عن صاحبك وزره لا أن تكون وزراً عليه.

إنّ من الخطأ أن تظن أنّ صحبة الوفرة والرخاء صحبة حقيقية، لأنّ كثيراً من الناس أصحاب مصلحة. لذلك فلا يمكن التأكد من صحبة لم تُجَرَّب في الشدائد}.

يقول حضرة مولانا:

«**كن صديقًا للناس، لأنّ القافلة كلما كانت كبيرة العدد كثيرة الازدحام كان ذلك قاصمًا لظهر قطاع الطرق**».

{إنّ من أكبر حظوظ المؤمن أن يتخذ صاحباً صالحاً، لأنّ النفس والشيطان أسهل ما يخدعون المرء إذا كان وحيداً، في حين أنهما لا يقتربان بسهولة ممن هو مع الصالحين. ولهذا قال النبي ﷺ:

«**الجماعة رحمة والفُرقة عذاب**»[١٣١]

١٣١. المناوي، فيض القدير، جـ٣، ص٤٧٠/ ٥٤٢٠.



لذلك، فقد كان الاجتماع بالصالحين واجتماع الصالحين فيما بينهم أحسن سبيل لوقاية المجتمع من الانحلال والتآكل الروحي. وأمّا هجران الصالحين والتآلف مع الفاسقين فهو ذرٌّ للسم على الحياة الروحية.

فكما قال الإمام الغزالي: إن معيّة الفاسقين والغافلين الظاهرية تتحول مع الوقت إلى معية عقلية، وتتحول المعية العقلية مع الوقت إلى معية قلبية. وهذا يجرُّ المرء نحو الهلاك خطوةً خطوة، ولذلك يقول النبي ﷺ:

«الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة...»[١٣٢] }.

يقول حضرة مولانا:

«قُطِع عني الإلهام هذا السَحَر، فعلمت أنه دخل جسدي عدة لقمات مشبوهات، لأنّ العلم والحكمة ينشآن عن اللقمة الحلال، والعشق والرحمة كذلك نتاج لها. فإذا غفلت جرّاء لقمة فاعلم أنها مشبوهة أو حرام».

«اللقمة التي تزيد النور والكمال لقمةٌ من كسبٍ حلال».

{يقول سفيان الثوري –قُدِّسَ سرّه– أحد أولياء الله:

«إنّ دين المرء على قدر كسبه الحلال».

١٣٢. الحاكم، المستدرك، جـ٣، ص٣٤٣/ ٥٤٦٦؛ البيهقي، الشُعب، ٢٥٦/ ٤٩٩٣.

وعندما سأله رجل عن فضل الصف الأول قال منبّهاً على اللقمة الحلال: «انظر لقمتك التي تأكلها من أين تأكلها، وقم في الصف الأخير بعد أن تأكدت من حلية لقمتك، فإنه لن يضرك حينئذ أين تقوم»}.

يقول حضرة مولانا:

«إنّ حكمة بلا عمل كثوب حسن مستعار، اعلم ذلك جيداً».

{لقد عمد النبي ﷺ إلى الحقائق التي أراد تبليغها للناس، فبدأ بنفسه أولاً فطبّقها في حياته، فصارت أحسن ميزان فعلي وأروع مثال يحتذى. ولأنّ حاله طابق مقاله ﷺ فقد نالت كلماته بركة التأثير في القلوب. فالكلمات لا تدخل قلب المخاطَب إلا إذا خرجت من القلب. والكلمات التي لا تصدر عن القلب، والتي لم يعشها صاحبها، إنما قالها بلسانه فقط، تدخل من أذنٍ وتخرج من الأخرى، ولا تترك أثراً طيّباً في الأحوال والأفعال. فالله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [١٣٣]} .

يقول حضرة مولانا:

«توضأ وضوءً لا يُنقَضُ أبداً».

{لقد أتينا إلى هذه الدنيا لعبادة الله، وكما هو معلوم، فإنّ صور العبادة كقراءة القرآن وأداء الصلاة لا تقام إلا بالوضوء. والوضوء الذي لا يُنقَض هو المحافظة على وعي التعبد حتى آخر نَفَس }.

١٣٣. الصف: ٢.



يقول حضرة مولانا:

«صلِّ صلاةً لا تنتهي أبداً»

{إنّ فترة أداء الصلاة تتراوح بين العشر إلى خمس عشرة دقيقة. ثم يجب بعدها الحفاظ على القلب كما هو في الصلاة، لأنّ القلب الذي لا يُحفَظُ يسقط في الغفلة؛ ثم ينزلق بعدها في الفحشاء والمنكر. مع أنّ الصلاة المؤداة بحقها تنهى العبد عن الفحشاء والمنكر.

هذا يعني أنّ علامة قبول العبادات أن يكون حالك بعد العبادة كحالك فيها. ومن هذه الجهة، فصلاة عشاق الله مستمرة، فهم يجتهدون في أن يعيشوا كل نفَس من أنفاسهم وكأنهم عند الله ﷻ }.

يقول حضرة مولانا:

«لا يكفي العاشقَ خمس صلوات، بل يبغي خمسمئة ألف صلاة».

«هل يرغب العاشق الحقيقي في انقضاء الوصال؟».

{أكبر لذة للصلاة هي الاقتراب من الله ومعيته، كما أنّ الله تعالى يقول: ﴿...**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [١٣٤]، فالمتعة الروحية للعبادات لا تقاس بالمتع المادية، كما أنّ سيدنا إبراهيم بن الأدهم الذي ترك عرشه وغاص في بحر العشق الإلهي قال:

١٣٤. العلق: ١٩.



«لو كان وجْدنا واستغراقنا في الحب الإلهي مجسدًا لدفعت به الملوك ثرواتها وملكها لتناله».

إنّ علامات اللذات الشهوانية هي أنها يخمد لها الطلب والرغبة عند تذوقها، أمّا اللذات الروحية فهي تُطلب بشوق أكبر كلما ذاقها صاحبها. لهذا لا يُشبَعُ من صلاة أُدِّيَت كلقاء حقيقي بالله تعالى. ولذلك لا يرغب عاشقو الله بأن ينتهي الوصال الذي ينالونه في صلاتهم}.

يقول حضرة مولانا:

«**ينبغي لك يا أخي أن تجد حياةً لك في التفكر... فإذا كان تفكرك زهرًا فأنت في حديقة الزهور، وإذا كان تفكرك شوكًا فأنت حطب كانون**».

{العقل والقلب في حال تفكر دائم. لكنه يجب أن نجعل تفكر القلب والعقل دائماً فيما يرضي الله سبحانه وتعالى. فالتفكر المقبول ليس التفكر المسموم بمستنقع الشهوانية، بل هو التفكر المستظل بمناخ الروحانية.

إنّ التفكر الشهواني والشيطاني يجر الإنسان نحو الغفلة ويجعل المرء عبد نفسه، والتفكر الرحماني والروحاني يرقق القلب ويزيد الخشوع في العبادات ويخلص العبد من أطماعه النفسانية، وتجعله سائحاً في آفاق السر والحكمة.



فكما أنّ ملء خزان وقود سيارة بالماء يفسدها، فكذلك حتى يمكن ولوج مناخ تفكر يحيي الأرواح يوجب انشغالاً بالحكمة لا بالهراء العقلي والقلبي. كما أنه لا يُرجى خروج طعام لذيذ من إناء مُلئ بماء آسن.ولذلك يجب علينا أن نفرّق في جعبة تفكرنا بين الأشياء اللازمة وغير اللازمة.

كما أنّ الله تعالى يقول عن المؤمنين المفلحين في كتابه الكريم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [١٣٥]

ويقول رسول الله ﷺ:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [١٣٦] }.

يقول حضرة مولانا:

«لو كانت الدنيا مليئة بالنعم لأكلت الفأرة والأفعى التراب. ولقالت الدودة داخل الخشب من يملك حلوى رائعة كهذه».

«لو أراد الحمار شراء شيء ما كان إلا بطيخ غير ناضج».

«يُقَيَّمُ الإنسان بالنظر إلى ما يطلبه».

{ الميول والتوجهات مرآة الإنسان، والإنسان يفكر فيما يطلب ويحلم به، ويسعى حثيثاً إلى ما يحلم به.

١٣٥. المؤمنون: ٣.

١٣٦. الترمذي، الزهد، ١١/ ٢٣١٧.



إذاً انتبهوا: ما الذي نطلب؟ هل الدنيا قبلة مطالبنا أم الآخرة؟ هل مسار أحلامنا النفس أم الروح...؟

لا ننسى أنّ طلب النعيم في سوق الشقاء حمق لا حمق بعده...}.

يقول حضرة مولانا:

«هل يمكن أن يقال عن البذرة إذا سقطت في التراب أنها ماتت؟».

«إذا حُمِلتُ على النعش يوم موتي فلا تظنّن أنّ عندي هم الدنيا وغمها، ولا تعتقد أني حزين على فراقها ».

«احذر أن تبكي على موتي أو تقول: "وا أسفاه"، فإن أنا اتبعت نفسي في حياتي، ووقعت في شراك الشيطان، فذلك هو وقت الحسرة».

«لا تقل إذا رأيت جنازتي. "حان الفراق"، واعلم أنّ ذلك الوقت ليس وقت فراقي بل هو وقت لقاء "ربي"، أي حان أوان وصاله».

«إذا وضعوني في قبري فإياك أن تقول: "وداعًا" لأنّ القبر ستار العالم الآخر، وستار مقام الجنات».

«أرأيت الغروب والزوال، عليك أن ترى الشروق أيضًا. تخيل أنّ الشمس والقمر أفلا، أيفقدان من نورهما شيئًا؟».

«حتى لو بدا لك أنّ هذا الأمر غروب، فهو في الحقيقة شروق، والتقاء بالحيلة من جديد».



{في الحقيقة، يقضي الانسان عمره من جهة بنيته المادية بأن يكون أولاً عنصراً طبيعياً في التراب، ثم يقضي فترة في صلب أبيه ثم فترة في بطن أمه، وأخيراً بين ذراعي والديه وفي قلبهما. ثم يودع من مهد الحياة إلى لحد القبر، فيبدأ رحلة القبر والقيامة والجنة أو النار.

لذلك فالموت ليس عدماً، بل هو أول خطوة في البعث الجديد. تماماً كانقطاع الطفل عن رحم أمه وولادته للحياة، الموت هو خلاص للروح من هذا العالم الفاني وشروقها على صباح حياة أبدية.

سيُحاسب ابن آدم في ذلك العالم الأبدي عن الحياة التي قضاها في الدنيا، وحسب نتيجة ذلك الحساب إمّا أن يلقى نعيماً أبدياً أو أن يلقى -والعياذ بالله- عذاباً أليماً.

وعليه، فوظيفة المؤمن هي أن يعمل على التجهز للموت وتجميله بدلاً من الهلع والفرار منه.

يجب التفكير في أنّ مئة وأربعة وعشرين ألف نبي والصحابة الكرام وأولياء الله الذين لا حصر لهم استطاعوا أن يجمّلوا الموت. وهم الآن ينتظرون القيامة في قبورهم التي كل واحد منها روضة من رياض الجنة. وعلينا نحن أيضاً أن نقضي أيامنا الفانية فيما يرضي الله من أجل نعيمنا الأبدي، وعلينا أن نجتهد في الاستعداد بشكل جميل للقبر، فضلاً عن أن نجهز لأنفسنا قبوراً جميلة}.



اسأل الله تعالى أن يرزق قلوبنا نصيباً من تجليات حكمته الإلهية، وأن يجعلنا جميعاً من المؤمنين الصالحين المتعمقين في حكمة القدوم إلى الدنيا والذهاب إلى الآخرة.

آمين!..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رحمه الله

١١

يقول مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سأل عقلي قلبي: ما الدين؟ فانحنى قلبي على أذن عقلي وهمس له قائلاً: الدين هو الأدب».

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ١١

يقول حضرة مولانا:

«عندما يلعب الأولاد يجعلون دكانًا ويبيعون فيه ويشترون لعبًا، لكنهم لا يعودون بربح، إنما يمررون أوقاتهم.حتى إن الطفل الذي فتح دكانًا ليعود من اللعب مساءًا إلى البيت جائعًا، والدنيا كلَعِبِ هؤلاء الأطفال».

{وجد أبو بكر الشبلي في طريقه يوماً طفلين يتنازعان على حبة جوز وجداها، فأخذها منهما وقال لهما: اصبرا حتى أقسمها بينكما. فلما كسرها وجدها فارغة فنودي أن: إذا كنت مُقسّماً فاقسمها!، فخجل الشبلي وقال: كل هذا النزاع كان على حبة جوز فارغة وعلى "لا شيء" جاف...[١٣٧]

كم من نِعَم الدنيا يُتنازع عليها، وهي في الحقيقة كحبة الجوز الفارغة تلك. وعندما يستيقظ الإنسان من غفلة الحياة الفانية بحلول الأجل سيفهم جيداً

١٣٧. العطار، ص، ٦٦١.

كم هي قصيرة ومؤقتة وفارغة، وسيندم على ما تحمل من مشقات في سبيل لا شيء في هذا العالم الفاني. ويا له من انخداع مؤسف أن يأكل الناس بعضهم بعضاً على أمور يندمون عليها في القبر }.

يقول حضرة مولانا:

«**إنّ الحياة الدنيا عبارة عن حلم. ومِلكك ثروةً في الدنيا هو ككنز في حُلم. ومال الدنيا يَعبر من جيل إلى جيل في فترات زمنية محددة، ويبقى في النهاية في الدنيا**».

«**ما الذهب، ما الروح، ما الجواهر والمرجان إذا لم تُصرَف في حب ولم تُبذَل من أجل حسناء؟**».

{إنّ القيمة الوحيدة للدنيا هي في إحياء وإعمار عالم الآخرة. وتكتسب روح الإنسان وماله قيمة حينما يُبذلان في سبيل الله. ويكون لنعم الدنيا قيمتها عندما تُجعَل وسيلة لتسلية وإسعاد قلب من القلوب المكلومة التي هي محط نظر الإله. وإلا فهي لا تعدو كونها تعباً لا فائدة منه ترجى وحساباً أخروياً يثقل الكاهل. وإنّ حياة عيشت بغفلة عن الآخرة ما هي إلا صحراء مُهلكة تُغري بالسراب.

لهذا السبب، وجب على المؤمن أن يجتهد في إحالة نعم الدنيا نعيماً أخروياً، وأن يجعل "جبر الخواطر" -الذي هو أحد أحسن طرق تحويل النعم الدنيوية نعيما أخروياً- دستوراً لحياته.

وما أجمل ما قال يونس أمره:



أنا ما أتيت من أجل الخصام
إنّ سعيي للمحبة
منزل الخليل القلوب
ولإقامتها أتيت...

إنّ المؤمن الكامل الذي يطلب رضا الرفيق الأعلى، رضا أعظم خليل يعلم أنّ الخُلَّة الحقيقية لا تختلط بالملك. ومن هذا المنطلق، فهو لا يجتنب أي بذل في سبيل الله مدركاً وواعياً بأنّ جميع ما يملك أمانة من الله لديه. أمّا الوضعاء والبخلاء الذين يجتنبون إنفاق نعم الله -التي تفضل بها- في سبيله جلّ في علاه فلا ينجون من أن يكونوا هم المقصودين من الإنذار الإلهي:

﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١٣٨]}.

يقول حضرة مولانا:

«اعدل؛ فالعشق "ماء حياة" جميل، والذي يفسده هو أطباعك "الشهوانية" والسيئة. لقد سميتَ الشهوة عشقًا. آه لو تعلم، كم هو البون بين الشهوة والعشق».

«إنّ العشق والوجد الإلهي يجعل المؤمن يقظًا، أمّا العشق الدنيوي والشهواني فيجعل الإنسان أحمقَ مخبولًا».

١٣٨. التوبة: ٣٤.



{إنّ منشأ الحب هو الله تعالى، وقد جعل بذرة الحب الإلهي في قلب كل إنسان خلقه. وإنّ أهم واسطة للمؤمن في رحلة اتصاله بالله هي قدرته على الحب، والتي جبله عليها.

لكن ثمة حب حقيقي وحب مجازي، فالحقيقي هو حب الله والمجازي هو حب غيره. والحب المجازي الذي لا يخرج عن معايير الرضا الإلهي هو أصلاً درجة إلى الحب الحقيقي. ويكفي ألا يكون الحب المجازي آخر محطة للقلب. فالخطر الحقيقي هو حب من لا يستحق، لأنّ مستوى الإنسان متعلق بنسبة استحقاق الكائن -الذي أحب في الحياة- للحب.

لهذا السبب، يجب الحذر أشد الحذر من تضييع ميول الحب تحت عناوين خاطئة. لأنّ الحب الذي لا يجد من يستحقه هو إسراف كبير في الحياة. والحب الذي أطبق عليه فكي كماشة المصالح النفسانية هو أشبه بالورود التي تتفتح على زوايا الرصيف، فهي عاجلاً أم آجلاً ستوطأ بالأقدام. فما أسوأ حظ ماسة سقطت في سلة مهملات! ويا لها من خسارة أن تصبح ملكاً حراماً في يد غير مستحقة!.

إنّ العبد الذي يستطيع حصر رأس مال محبته لله سبحانه وتعالى المستحق لها، يجعل في دائرة المحبة التي في قلبه اللهَ ﷻ وكل كائن بمقدار قربه منه سبحانه وتعالى. هذه الكيفية نجدها عند يونس أمره إذ يقول:

«تسامح مع الخلق لأجل الخالق». ومهما تكن صفتها وماهيتها فهي احتضان جميع المخلوقات بحب ورحمة حرمة لخالقها.

إنّ أولياء الله هم قوم نمّوا بذور العشق والحب الإلهي في قلوبهم حتى أحالوها أشجاراً مثمرة، وهم لهذا السبب يعيشون مكرِّمين للمخلوقات من أجل خالقهم، فخُلَّتُهم مع الله جعلتهم أخلّاء لجميع المخلوقات.

وما أجمل ما عبر به الشيخ إسماعيل عطا عن هذه الخُلَّة حيث قال:

«كن في الشمس ظلًا وفي البرد معطفًا وفي الجوع خبزًا»}.

يقول حضرة مولانا:

«تؤثّر أنفاس الأنبياء حتى في الحجر، وتخضع لأقوالهم حتى الجبال، لكن درر الحكمة التي ينثرونها لا تسقط واحدة منها على أحمق».

«إن نصح الجاهل الغارق في الغفلة كبذر الحب في أرض قاحلة، أو كسقي الصحراء. ولا شيء يرقّع ما مزق الحمق والجهل. أيها الناصح لا تبذر بذور حكمتك في مثل تلك الأرض».

{كما أنّ منح الحكمة إلى غير أهلها ظلم لها، فكذلك حرمان من هم أهل للحكمة منها ظلم لهم. ولهذا السبب، فعلى المؤمن أن يضبط جرعة كلامه وفق مستوى إدراك من يخاطبه، وعليه أن



يعرف من يخاطب وكيف يخاطبه، وعليه أن يتكلم إذ ينفع النصح والتذكير، وأن يسكت في خلاف ذلك. فالله تعالى يقول:

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [١٣٩]

فالسكوت أولى من الكلام في الأحوال التي لا تنفع فيها النصيحة والتنبيه والتذكير.

ويعبر حضرة مولانا عن هذه الحقيقة فيقول:

«لا تبع المرايا في سوق العميان، ولا تقرأ الشعر في سوق الصُمِّ».

أي أن أخذ سهمٍ من النصح هو مسألة نصيب. ومن حُرِم من هذا النصيب لا ينتفع مهما كانت النصائح. ويجب ألا تضيّع وقتك مع من حُرم من هذا النصيب بينما هناك من يمكن أن يستفيد منها.

وما أجمل ما تلخص به القصة التمثيلية التالية هذه الحقيقة:

«كان سيدنا عيسى عليه السلام يركض مذعوراً وكأن أسداً يلاحقه، فتبعه رجل وسأله عن الذي يهرب منه، فقال له عيسى: أهربُ من أحمق، فقال له الرجل:ألست المسيح الذي يبرئ العمي والصم بنَفَسِه ويحيي الموتى بدعائه؟ لماذا تهرب وأنت قادر على فعل ما تشاء؟. فقال له عيسى عليه السلام:

١٣٩. الأعلى: ٩.



أقسم أني قرأت اسم الله الأعظم على العمي والصمِّ فبرؤوا، وعلى ميت فأحيي، وعلى فقير فغني، لكنني دعوت به على قلب أحمق آلاف المرات فلم ينفعه. وانقلب ذلك الأحمق حجراً قاسياً ولم يشفَ من حُمقِه.فقال له الرجل الذي ازدادت حيرته: لماذا لم يؤثّر الدعاء باسم الله الأعظم في الحمق في حين أنه وسيلة لشفاء كل عليل؟ ما الحكمة من ذلك؟ .

فقال له عيسى:

الحمق مرضُ قهر إلهي، وغيره ابتلاءات لم تتعرض للقهر الإلهي. الابتلاء مرض، لكنه لا يؤلم إلا صاحبه. أمّا الحمق فهو أيضاً مرضٌ لكنه يضر ويؤذي ويجرح الآخرين».

لذلك قال العارفون:

«ثلاثة لا يمكن أن يكونوا أخلّاء لله تعالى: المتكبر والبخيل والأحمق»}.

يقول حضرة مولانا:

«دائمًا ما تحمل دودة الجُعل الأوساخ، لذلك يصرعها ماء الزهر، ولا تداويها إلا الروائح الكريهة لأنها اعتادت عليها.

يرغب الذين ينصحون الناس في سبيل الله أن يعالجوا من قسا قلبه بكلام حكيم حسن كالعنبر وماء الزهر حتى ينفتح له باب ويتحسن ويتعافى.



لا شك أنّ من لا ينتفع بعطر النصيحة قد اعتاد أنفه على الروائح السيئة.

فخذ أنت نصيبك من النور والنصيحة والخير والمعروف... ولا تجعل أنفك في السوء ولا تكن جُعلاً. كن إنسانًا...إنسانًا...».

{الأجناس مع محيطها في الكون يحكمها قانون الجذب. فالبلبل مثلاً، يُسرّه المرعى والعشب وعيون الماء التي تجري كالموسيقى، أي تُسرُّه المناظر اللطيفة التي تبعث الطمأنينة في الروح. أمّا من هم في فطرة حشرة الأوساخ فيستمتعون بالنجاسة، أي بالسفالة وسوء الأخلاق والفساد والنفاق.

وكما يتغذى الجرذ في قنوات الصرف، يظن السفهاء شقاءهم نعيماً. ولاعتيادهم الشقاء يصرّون على الفرار من وسائل النعيم الحقيقي.

وتشير عبارات حضرة مولانا التالية إلى هذه الحقيقة:

«يا حشرة النجاسة أنت تفرين من حديقة الورود، لكن نفورك هذا يدل على بهاء روضة الزهور...».

لذلك يعجز الحمقى عن إدراك الحكمةَ. وإنّ محاولة تعليمهم الحكمة ظلمٌ لها، وإسراف في الوقت والجهد. وهو سعي هباءٍ وتعب لا فائدة منه، كما تهطل أمطار نيسان المباركة على الصحراء والصخر فتذهب سدى}.



يقول حضرة مولانا:

«**مع الجاهلين كن صامتًا كالكتاب**».

{أي لا تدخل في نقاش مع الجاهلين حتى يستفيدوا من علمك ومعرفتك وحسن خُلُقِك ومن نصائحك التي تؤديها بأفعالك وتصرفاتك. لأنّ النقاش والجدال والمنافسة ونزاع التعالي تحُرِّك الكبر والأنانية لدى معظم النفوس غير الناضجة، مما يؤدي إلى انغلاق مفاهيمها أكثر. وهذا بدوره يُصعّب كثيراً قبول الحق.

يحمل العارفون أرواحاً ناضجة تقبل الحق ممن قاله كائناً من كان، وعلى أي وجه كان. لكن غير الناضجين والفظين والمتهورين والجاهلين ليسوا كذلك. لذلك ينبغي الاقتراب منهم بحذر، وقول الحقائق لهم بلسان مناسب. وأحياناً يلقّن سكوت ذو مغزى أو نظرة عميقة دروساً لا يمكن لكثير من الكلام أن يعبر عنها }.

يقول حضرة مولانا:

«**إذا رُمت أن تتخذ الله تعالى خليلاً فاعلم جيداً أنه لا يزور الخليل خليله ويده فارغة، فالذاهب إلى الطاحون لا يذهب بلا قمح، والله تعالى يسأل عباده في المحشر فيقول لهم:**

"ماذا أعددتم ليوم القيامة". ثم يقول لهم:

"أتيتم كما خلقناكم أول مرة بيد فارغة وبلا قوت، وجئتم فرادى محتاجين. فقولوا ماذا أعددتم ليوم القيامة؟



أم أنكم لم تكونوا تأملون العود من الدنيا إلى الآخرة، والوقوف بين يدي الله؟

أم بدت لكم أخبار يوم القيامة في القرآن أخبارًا فارغة؟".

يا أيها المخلوق في أحسن تقويم كيف تفد على باب الله بقلب فارغ هكذا؟

قلل في هذا العالم الفاني من نومك وطعامك وشرابك ولو شيئًا يسيرًا وأعدّ هدية لله يوم تلقاه».

{كل إنسان قدم إلى الدنيا مسافر في رحلة الخلود. وكما يعد أصحاب السفر الطويل زاداً لأنفسهم، فلا بد كذلك لابن آدم الذي أتى من الله وسيعود إليه أن يتهيأ لسفر الخلود، وأن يُعدّ الزاد للآخرة.

يقول ربنا عَزَّوَجَلَّ:

﴿...وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١٤٠]

لهذا السبب، فإنّ الركون إلى هذه الدنيا الفانية، وكأننا مخلدون على ظهرها، والسعي خلف أهواء النفس وقضاء الوقت، الذي هو أنفس رأس مال، بشكل خال من الأرباح الأخروية هو أكبر غفلة يعقبها ندم مؤسف}.

١٤٠. البقرة: ١٩٧.

يقول حضرة مولانا:

«بينما تملأ الكيس احذر من أن يفرغ من ثقب في أسفله».

{إنّ أقوات الآخرة التي يحتاجها كل إنسان: الإيمان أولاً ثم العبادات والخير والحسنات والأعمال الصالحة. لكن خدش ذلك بالأمراض القلبية والطباع السيئة لا يختلف عن ثقب الكيس الذي جمعت فيه أقوات الآخرة.

من الضروري للمؤمن حتى يبلغ الكمال أن يتزين بالأخلاق الحسنة. لذلك يجب عليه أن يكون متواضعاً حقانيّاً عادلاً أميناً صادقاً مؤدباً حييّاً كريماً مشفقاً رحيماً عفوّاً صبوراً قنوعاً مخلصاً.

ويجب بالمقابل، تجنب الطباع السيئة بشدة، كالكذب والغيبة والظلم والحقد والحسد والطمع والبخل والغرور والكبر والرياء حتى لا تذهب الأعمال الصالحة هباءً.

لهذا السبب، ينبغي بشكل خاص تجنب أداء الصلاة بغفلة وتضييع أجر الصيام بأمراض القلب، كالغيبة والنميمة، ومن إضاعة الزكاة والصدقة والإنفاق سدى من خلال المنّ، ومن تفريغ العبادات والخيرات من جوهرها، بجعلها وسيلة لهوى النفس الذي هو الفخر. كما أنه يجب الابتعاد عمّا يضر بالإخلاص من أحوال ومواقف، وعدم إشراك ما هو فانٍ بنياتنا في العبادات، وإلا، فأجر كل هذه الأعمال إلى هباء}.



يقول حضرة مولانا:

«سأل سيدنا يوسف صاحبه الذي قدم من السفر: ماذا جلبت لي من هدية؟.

فأجابه صاحبه: وما الذي لا تملكه؟

لكن، ولأنه لا يوجد شيء أجملَ من جمالك أحضرت لك مرآة حتى ترى فيها دائمًا تجليات الجمال التي لديك».

{إنّ ربنا خالق كل شيء ومالكه، لذلك فهو مستغنٍ عن كل شيء. وليس ثمة هدية يمكن أن نأتي بها تعبيراً عن مشاعر العبودية والشكر له غير موجود أجمل منها في خزائنه التي لا حد لها. فهو الحسن المطلق ومنبع كل جمال. لذلك، فإنّ أجمل وأثمن شيء في الكون ليس إلا "قلب" طاهر نقي لدرجة أن يكون انعكاساً لجمال الله سبحانه. فأليق هدية نحضرها لله تعالى هي مرآة قلب منوَّرٍ ومصفّىً ومجلَّىً ونقيٍّ ولطيفٍ متمثلٍ كتجلٍّ لجماله الأسمى ﷻ. أي أنّ ما يريده ربنا منا هو: "**قلب سليم**"، و "**قلب منيب**"، و "**نفس مطمئنة**". والله تعالى يحب عبده ويرضى عنه عندما يرى تجليات صفات جماله سبحانه في عالم قلب عبده. يقول الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ...﴾[١٤١]

١٤١. يونس: ٢٥.

بالطبع، فلكل دعوة شرط لقبولها ولكل نعمة ثمنها. لهذا السبب، ينبغي على العبد من أجل الفلاح الأبدي أن يجتهد في هذه الدنيا الفانية التي هي مزرعة الآخرة، بكسب أكثر شيء منحه الله قيمة، وهو القلب السليم.

كما أن ربنا ﷻ يقول:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [١٤٢]

إنّ القلب السليم قلب تنقّى من درن ما يبعد عن الله، وصار لإقباله الدائم على الله بوصلة لا تخطئ الحقائق، وهو كفانوس صاف من بلور تسطع منه أنوار الإيمان. فالمؤمن يميز بهذا النور الذي في قلبه السويَّ من المعوجّ والخير من الشر والحق من الباطل والحلال من الحرام.

إنّ فضيلة وقيمة جميع الأعمال التي هي أمارة العبودية مرتبطة بصفاء القلب. لأنّ القلب محط النظر الإلهي.

وقد عبّر نبينا ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله:

«**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**» [١٤٣] }.

١٤٢. الشعراء: ٨٨-٨٩.

١٤٣. مسلم، البر، ٣٣/ ٢٥٦٤.

يقول حضرة مولانا:

«كان هناك رجل يذكر الله على الدوام ويردد "الله الله" ويشعر مع هذا الذكر بلذة في فمه كأنه أكل عسلاً، فأتاه الشيطان يوماً وقال له:

-لماذا تردد دائمًا "الله الله" بلا توقف، هل قابلك الله ولو مرة واحدة على ذكرك هذا الذي تقيم عليه منذ زمن بأن قال لك: لبيك عبدي، ماذا تطلب؟ ألا تسأم؟ إلى متى ستبقى تردد هذه الكلمة؟.

ففقد الرجل الذي لا يفتر لسانه عن ذكر الله أمله وترك الذكر، ونام مجروح الفؤاد، فرأى في منامه الخضر يقول له:

-لماذا تركت العمل الحسن الذي كنت تقوم به وتركت ذكر الله؟

فقال له الرجل:

-لم أر مقابلاً لكل هذا الذكر ولم يأتني من عند الله صوت "لبيك" فخفت أن أُطرَدَ من بابه.

فرد عليه الخضر بهذه الحكمة:

-يا عبد الله إنّ قولك "الله" هو قول الله لك "لبيك". هل يرزق الله الجميع ذكر اسمه؟ فقدرتك على قول "الله" هو علامة محبة الله لك.

فلما سمع الرجل ذلك نهض وعاد إلى ذكر الله».



{إنّ القدرة على ذكر الله وشكره وعبادته وطاعته لهو فضل آخر من الله ﷻ يستحق الشكر.

لو عبدت جميع المخلوقات الله فإنّ ذلك لا يزيد من عظمة ألوهيته ولا مقدار أنملة. ولو عصته المخلوقات جميعها فإنّ ذلك أيضاً لا ينقص من عظمة ألوهيته ولا مقدار ذرة. فكما أنّ الله ﷻ لا يحتاج شيئاً أبداً، فهو لا يحتاج عبادتنا. فهو الغني عن كل شيء سبحانه. لكننا نحن المحتاجون إلى عبادته بنية خالصة، وإلى التقرب إليه بالأعمال الصالحة كي نستجلب بذلك رضاه ورحمته.

تلجأ النفس والشيطان إلى ألف حيلة وخديعة لإبعاد الإنسان عن عبادة الله وطاعته. فالابتعاد عن العبادات خوفاً من عدم قبولها هو سقوط في أحد شراك الشيطان الخطيرة.

إنّ وظيفة العبد هي أداء العبادات على أحسن وجه يستطيعه، وعدم الحكم بعقله في موضوع قبولها من عدمه، وترك تقدير ذلك لله. لأنّ المرجع الوحيد لقبول العبادات هو الله تعالى. وإنّ قيام العبد ليحكم في ذلك بنفسه هو تجاوز لحدوده، وهو مناف لأدب العبودية.

إنّ ذمتنا مشغولة بأداء تكاليفنا حتى ولو بأخطائها وعيوبها ونقصانها باذلين في ذلك قصارى جهدنا، ورجاء العفو من الله عن أخطائنا، والاستعاذة بفضل الله وكرمه وعفوه ومغفرته، والحفاظ بشكل دائم على حالة العبودية الروحانية المتوازنة بين الخوف والرجاء.



وإذا كان الاتكال على العمل والثقة المطلقة بقبول العبادات خطأً فادحاً فإنّ ترك العبادات جراء فقدان الأمل بقبولها أفدح.

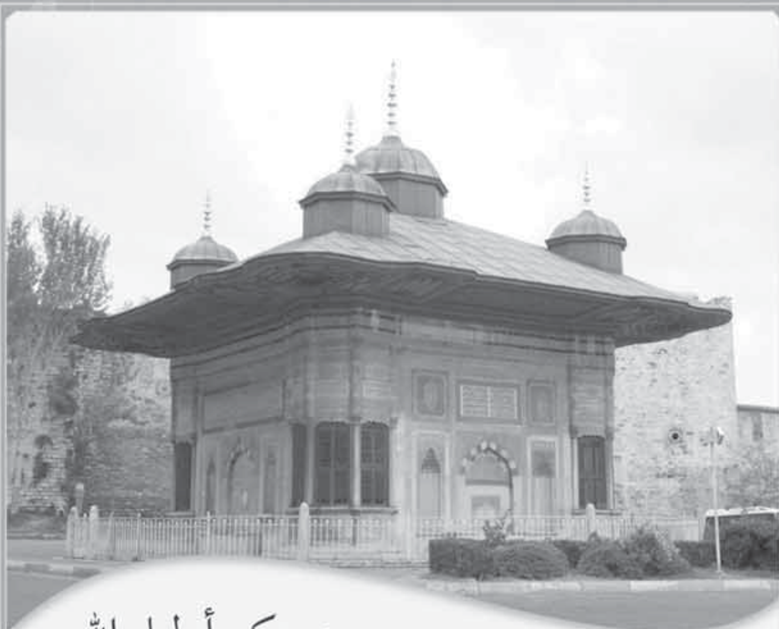
إنّ وظيفتنا هي أن نستمر في عبادتنا لله بتواضع وخشوع وذل وانكسار باذلين في ذلك غاية جهدنا مع علمنا بأنه يستحيل أن نوفيه بحق دينَ عبادتنا وشكرنا له جل في علاه. وبعد ذلك، الطمع في فضله وكرمه وعفوه ومغفرته}.

رزقنا الله وإياكم حياة عبودية موافقة لرضاه ويسرنا إلى ذلك.

آمين!..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا
جلال الدين الرومي رحمه الله

١٢

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رَحِمَهُ اللهُ – ١٢

إنّ الموت بالنسبة للعبد الصالح وصال، ووسيلة للقاء "الرفيق الأعلى"، وهو كما قال مولانا: "ليلة عرس". لذلك، فالموت في نظر عشاق الله جَلَّ هو فرحة العودة من غربة الدنيا إلى الوصل.

يقول حضرة مولانا:

«معظم الناس يخافون من موت أجسادهم، لكن الأمر الحقيقي الذي ينبغي الخوف منه هو موت القلوب»

{إنّ أكثر ما يخافه الإنسان هو الكوارث المادية التي غاية ما يحصل فيها هو فقدان الأرواح، كالزلازل والأعاصير والحروب والحرائق، لكن الأمر الأساسي الذي ينبغي الخوف منه هو الذنوب التي تسمم حياة القلب. ويجب أن يُخشى من المناظر المرعبة التي ستشاهد في القبر والآخرة بسبب تلك الذنوب.

كل ذنب هو نكته سوداء تنكت في القلب، فعندما يسوّد القلب بأوساخ الذنوب ويفقد حياته المعنوية يفقد حساسيته في تمييز الخير من الشر والحق من الباطل والصحيح من الخاطئ. ولذلك، يستطيع أن يقترف أعظم الجرائم دون أن يشعر في ضميره بأدنى حرج، وكأنه يستمع لموسيقى عذبة. فلم يعد ثمَّ فرق

بين ذلك القلب الذي فقد حساسية اتقاء الذنوب وبين الجثة التي ضمها القبر.

وإنّ أشد غفلة ألا يشعر المرء بأنه صاحب قلب ميت.

يقول وهب بن منبه:

«ما أغرب الناس، يبكون على ميت الجسد ولا يبكون على ميت القلب، في حين أنّ المصيبة الحقيقية هي موت القلب».

فالقلب الميت كسفينة ليس لها نظام توجيه، قد كُسِرَ مقودها في وسط المحيط، ولا يُعرَف في أي دوامة يكون هلاكها. لذلك، فهي لا تنجو من الضياع في المجاهل والطرق الخاطئة.

وما أجمل ما عبرت به كلمات عمر بن عبد العزيز عن هذه الحقيقة حيث قال:

«المحرمات نار، لا يدنو منها إلا الموتى "قلوبهم"، فلو كان من مد يده إليها أحياء لتألموا منها لا محالة».

وقد ذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الفرق بين القلب الحي والقلب الميت فقال:

«إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه»[١٤٤]

١٤٤. البخاري، الدعوات،٤/ ٦٣٠٨؛ مسلم، التوبة،٣.



عندما تخسر القلوب الغافلة مكاسب دنيوية تحزن وتفكر في ألف حل وحل لئلا تخسر ثانية. لكنهم لا يأبهون للخسائر المعنوية التي تلقي بحياتهم الأبدية إلى الخطر.

مثلاً، إذا مرضوا في أبدانهم أسرعوا إلى الطبيب متمسكين بالدواء والعلاج والوقاية بينما هم، للأسف، لا يبدون الحساسية ذاتها اتجاه الأخطار التي تسمم الروحانيات. ولا يبالون بانسحاق أرواحهم في سكرات الغفلة. وحالهم هذه تظهر من جميع تصرفاتهم.

على سبيل المثال، فإنّ القلق الذي يعيشه الأهل والجهد الذي يبذلونه في سبيل حصول أبنائهم على شهادة جيدة ومستقبل لامع، لا يبذلون ولا حتى جزء منه من أجل شهادتهم الأُخروية ومستقبلهم الأبدي. في حين أنّ أثمن تحصيل في هذا العالم الفاني هو تحصيل "العبودية لله" وتحصيل "معرفة الله".

زار أحدهم الشيخ سامي أفندي ليطلب دعاء فضيلته، وليُعرِّفَه بأبناء أخيه، فلما دخل عليه وقبل يده قال له في معرض الافتخار:

«لقد درس هؤلاء الفتيان يا سيدي في أمريكا وصاروا مهندسين، فنلتمس منكم الدعاء لهم». فقال لهم الشيخ سامي بابتسامة معبرة:

«أنا الفقير أيضاً خريج دار الفنون، لكن التحصيل الحقيقي هو تحصيل معرفة الله».[١٤٥]

١٤٥. مصطفى أريش، ذكريات من محمود سامي أفندي، جـ١، ص ٢٠-٢١، مؤلف بالتركي.

يقول الفضل بن العباس:

«والحق إنني أعجب من هؤلاء الناس، إذا مات ولدي جاء الآلاف يعزونني فيه، وإذا فاتني وقت صلاة مع الجماعة لا يعزيني أحد ولا يحزن لذلك أحد.

أقسم إن فواتي صلاة جماعة لأكبر مصيبة عندي من فقدان ولد راشد صالح عالم».

ويلفت الشيخ المرشد أبو الحسن الخرقاني النظر إلى غفلة الناس العامة اتجاه الخسائر المعنوية وينبه عليه فيقول:

«لو طارت شرارة من التنور على ثوبك لأسرعت في إخمادها، فكيف تسمح لنار أن تحرق دينك، كيف تسمح لصفات السوء في قلبك في البقاء كالكبر والحسد والرياء».[١٤٦]

والنتيجة، فالأمر الذي ينبغي القلق منه في نظر أولياء الله هي الخسائر المعنوية التي تلقي حياة الإنسان الأبدية في الخطر }.

يقول حضرة مولانا:

«إنّ موت البدن هدية لأهل السر، فهل يضر المقصُّ الذهبَّ الخالص؟».

{إنّ الموت بالنسبة للعبد الصالح وصال، ووسيلة للقاء "الرفيق الأعلى"، وهو كما قال حضرة مولانا، "ليلة عرس".

١٤٦. الخرقاني، نور العلوم، ص .٢٣٩ .



لذلك، فالموت في نظر عشاق الله هو فرحة العودة من غربة الدنيا إلى الوصل.

يصور حضرة مولانا في كتابه المثنوي وفاة سيدنا بلال العاشق الصادق لله ورسوله بشكل دقيق، ويتوسع فيها كمثال على هذه الحقيقة. فبينما كانت زوجة سيدنا بلال تبكيه وترثيه سلّم أمانة روحه لصاحبها الحقيقي باطمئنان وبحسرة وشوق للقاء الأحبة.

وتحكي لنا السيدة عائشة رضي الله عنها تلهف أبي بكر رضي الله عنه العاشق الصادق لله ورسوله للوصال في لحظاته الأخيرة فتقول:

«دخلت على والدي أبي بكر لما مرض مرضه الذي مات فيه فقال لي: في أي يوم مات رسول الله ﷺ؟ فقلت: في يوم الاثنين، فقال: إني لأرجو فيما بيني وبين الليل. ثم قال بعد ذلك: إذا مت الليلة فلا تنظروني إلى غد فأحب الأيام والليالي إلي أقربها إلى رسول الله ﷺ» [١٤٧]

إنّ الموت الذي ترتعش منه قلوب الغافلين عن الإعداد له يحلو في القلوب مع الإيمان الذي لا يتزعزع وحياة العبودية المخلصة ويخالط شغافها العشق الإلهي، ويتحول إلى لهفة وصال للأحبة.

وهذا لا يكون بادعاء محبة سطحي، فالمحب الحقيقي يتلذذ بلقاء من يحب، أمّا أصحاب دعوى الحب المزيف فيفرّون من لقاء

١٤٧. أحمد، مسند، جـ ١، ص٨.



الله فراراً بعيداً. ويخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم عن حال بني إسرائيل هذا فيقول:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [١٤٨]

ومن هذه الناحية، يجب أن نأسى لموت من قضوا على آخرتهم بقضاء أعمارهم بالغفلة والباطل، لا أن نأسى لموت المؤمنين الصالحين. فمن امتلأ قلبه بنور الإيمان لا يضره حتى الموت. لأنه في الأصل سيموت كل من حان أجله. لكن من مات قلبه حتى لو عاش مدة إضافية فهو أصلاً بحكم الميت بين الأحياء. وما أجمل ما توضح به الحادثة التالية هذه الحقيقة:

شارك الشيخ الإمام نجم الدين الكبرى مع تلاميذه في تشييع جنازة رجل صالح، فتبسم الشيخ الإمام نجم الدين الكبرى أثناء تلقين المتوفى، فتعجب التلاميذ من تبسم شيخهم في موقف كهذا، وسألوه عن الحكمة من ذلك. لكن فضيلته امتنع عن التوضيح فلما أصروا قال لهم:

«إن قلب الإمام الملقِّن غافل وقلب الذي دخل القبر حيٌّ، فتعجبت من تلقين غافل لمن قلبه حي».

١٤٨. الجمعة: ٦-٧؛ انظر أيضاً: سورة البقرة، ٩٤-٩٥.



النتيجة، إنّ موت مؤمن صالح زكى نفسه ونقى قلبه هو ولادته في النعيم الأبدي. وإنّ الغافلين الذين حرموا من التربية الروحية لا ينفع قلوبهم أنهم أحياء، ولا ينفع العبد في الآخرة إلا القلب السليم.

ولهذا قال الشيخ الإمام أبو الفتح البستي:

«أقبل على النفس واستكمل فضائلها...فأنت بالروح لا بالجسم إنسان» }.

يقول حضرة مولانا:

«**خليل الورد الشوك**».

{لقد كملت الوردة وجملت لما اتخذت الشوك خليلاً لها وعايشته بمعروف. أي أنها بتحملها الأشواك تكتسب شكلاً جميلاً ورائحة لطيفة.

إنّ الإنسان يزكو بتحمله وصبره على الآلام والابتلاءات ويرتقي بذلك روحياً. لذلك، فإنّ أحب عباد الله إليه هم من نضجوا بعد أن قاسوا أشد الآلام في الحياة.

وما أجمل ما يقول فضيلة الشيخ أسعد الأربيلي:

«لا أخشى في طريق روض العشق من الأشواك، فأنا أجمع من فوق كل شوكة مئات البراعم من الورود».

«إني أستمتع بالألم في حديقة الدروشة، فلو جعلت وسادتي من الشوك لرأيت في منامي الورود»}.



يقول حضرة مولانا:

«الأحمق يسمع بموت الجميع ولا يخطر في باله موته أبدًا...».

{ تأبى النفس في قرارتها الفناء. لهذا يتمنى من بات أسير نفسه الخلود في الدنيا، ويكره التفكر بالموت، ويزعجه كل شيء يُذَكِّرُه بالآخرة. وبأسلوبه هذا، كأنه يبغي الفرار من الموت والآخرة. وكأنه يظن أنه بفراره هذا سيعيش حياة بلا آخرة.

والموت في نظر الغافلين كأنه دائماً قدَر الآخرين. ولا يضع الغافل نفسه مكان الميت، مهما شهد طوال حياته من جنازات. ولا يرغب حتى في التفكير أنّ دوره في دخول التابوت أو القبر سيأتي يوماً ما. ويحمل دائماً شعور الاستثناء المزيف أمام الموت، أي أنه لا يستطيع قراءة دروس الحكمة والعبرة من الموت. وهذه علامة القلوب الغافلة أو الميتة.

لقد أخبر المشركون في الجاهلية رسول الله ﷺ أنهم سيوافقونه ويتبعونه على ألا يحدثهم عن الآخرة، وألا يُحرِّم عليهم شيئاً، وألا يمسَّ أوثانهم. ويُذَكّرنا اليوم حال الغافلين عن الآخرة المتناسين الموت والراغبين في حياة بلا عبادة ولا مسؤولية ولا قيد؛ بموقف الجاهلية ذاته.

مثلاً، عندما يبنى مسجد في حيٍّ تقطنه شرائح بعيدة عن الحياة الدينية تنخفض أسعار طوابق البنايات القريبة من المسجد لعدم الرغبة بها، لأنّ الحجر الذي توضع عليه الجنازة للصلاة عليها في



فناء المسجد وصلوات الجنازة التي تقام تُذَكِّرُ من يعيشون حياة عابثة، وبعيدة عن همِّ الآخرة بالموت وتعكر عليهم صفوهم.

كذلك، فقد اشتكى كثير من الناس عندما كُتِبَت آية: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**...﴾ [١٤٩] على باب مقبرة زنجيرلي قويو بأنّ؛ أزيلوا هذه العبارة... فهي تبعث على التشاؤم.

تفرض اليوم جميع إعلانات الأنظمة المادية والرأسمالية والليبرالية، التي تستقي من الإلحاد، وموضاتها ومناشيرها، على الناس أن تعيش كما تشاء في هذه الدنيا التي كأنه لا آخرة لها. وإن ولوج هذه الدوامة هو سبب لأكبر خسران للبشر الذين يبتعدون في كل لحظة يقضونها عن الدنيا ويقتربون من الآخرة. فإنّ الاعتقاد بأنّ اعتبار الآخرة غير موجودة ينجي منها، ليس إلا مؤشر حمق. كما أنه لم يسمع أحد أبداً بخبر يقول بنجاة من فرَّ من الموت والآخرة والله. بل الأمر خلاف ذلك، فالله تعالى يخبرنا عن ذعر الإنسان وهلعه يوم القيامة فيقول:

﴿**يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ**﴾ [١٥٠]

ويبين الله تعالى في آية أخرى الملجأ الوحيد الذي يمكن للإنسان أن ينجو إذا فرَّ إليه فيقول: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**...﴾ [١٥١].

---

١٤٩. العنكبوت: ٥٧.

١٥٠. القيامة: ١٠.

١٥١. الذاريات: ٥٠.



يقول حضرة مولانا:

«إذا كنت ذا عينين تعرفان الله فسترى الخليل عبر مجالهما في كل الدنيا».

«ومع أننا في معية خليلنا إلا أننا نسأل: "أيها الخليل أين الخليل؟". ونحن جاثمون في ديار الخليل -أي في ملك الله تعالى- ننادي لفقدان عقلنا: أين الخليل، أين الخليل؟».

{إنّ القلوب التي بددت الغفلة تجد كل شيء حولها يحدثها عن الله تعالى. وكلّ كائن في نظر العباد العارفين بالله تعالى هو تجلٍ للقدرة الإلهية. وليس ثمة ذرة في الكون لا تُعرِّفُ الإنسان بربه ﷻ.

إنّ النظام الإلهي العجيب والمتحكم في الكون يُبدي بوضوح للعيون الناظرة، وينادي بلسان الحال الآذان السامعة أنه علامة صريحة على قدرة الله تعالى، وأنه لا يمكن إثبات خلق الكون عن طريق الصدفة، وأنه لم يُخلق فيه شيءٌ عبثاً.

إنّ هذا الكون الذي يفوق إدراك البشر، والذي فُرِشَ ومُهِدَ بعناية كما يُعتَنى بفرش غرفة العروس، بنباتاته وحيواناته وبشره وجماداته، حتى أصغر خلاياه وذراته، بل وعناصر الذرة ذات الأسرار كالإلكترونات والبروتونات؛ لَهُوَ بمثابة واجهة عرضٍ لتجليات القدرة والعظمة الإلهيتين.



لذلك، فإنّ إنكار وجود الله ﷻ ووحدانيته هو أمر مستحيل في نظر العارفين ذوي العقول الحقيقية، ولذلك قيل:

«شدة القرب حجاب، فالله تعالى ظاهر شديد الظهور "بتجلياته في كل زمان ومكان" لدرجة أنه غائب من شدة ظهوره».

أي أنه وحسب أهل المعرفة فإنّ الله ﷻ غائب لأنّ طاقتنا البشرية ليست في مستوى يدرك شدة ظهوره سبحانه.

فلو سطع مثلاً ضوء في غرفة بقوة خمسة آلاف فولط فقدرة عين الإنسان لن تقوى على رؤية شيء حولها. فإذا كان الأمر كذلك، فالله تعالى ذو النور الفائق فواقاً لا حد له، محجوب لا شك على إدراك البشر.

إن الانسان الذي يشاهد منظر الربيع في ضوء النهار يرى خُضرة الربيع ودرجات ألوانه المتنوعة لكنه لا يلاحظ الضوء الذي يوفّر له رؤيته. مع أنه أدرك كل الألوان التي رآها بفضل الضوء. إذاً، فالضوء في الحقيقة بقي محجوباً عن إدراك الإنسان لشدة وضوحه.

وإن شئنا أن نوضحه بمثال آخر نقول؛ نعيش بالهواء لكننا لا نراه في حين أنه يحيط بنا من كل اتجاه، ولا نشعر به إلا بالتنفس، ولذلك فنحن نقول مع أننا لا نراه بغض النظر عن إنكار وجوده:

«لا يمكن أن نعيش بلا هواء ولا يمكن أن تعيش الأحياء إلا به».

إذاً، فالمتعال، أي الله، الذي يفوق الخيال والإدراك هو في الوقت ذاته الأخفى والأظهر. والأصح أنه خفي ذاتاً ظاهر تجليّاً.



إنّ حجب الله تعالى إيانا نحن عباده عن الغيب مبني على حكمة امتحاننا. ولولا ستار الغيب لخرج الإيمان من كونه تكليفاً وغدا جبرياً، وبالتالي، لما كان إيمان العبد ليكسبه قيمة. كما أنه لن يستطيع أحد إنكار الله تعالى في الآخرة التي يُكشَف فيها ستار الغيب، ولكن لن يبقى للقبول قيمة حينها.

ومن هذا المنطلق، قال الله ﷻ في كتابه عن المؤمنين:

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...**﴾[١٥٢]

إن كل كائن في هذا الكون بالنسبة للعباد العارفين المدركين هذه الحقائق بحق؛ تجلٍّ من تجليات قدرة وعظمة الله تعالى اللتين لا حد لهما. وبالمقابل، فإنّ الذين ضُربَ على عيون قلوبهم حجاب الغفلة يرون كل صور القدرة والعظمة والحكمة والعبرة والإلهية حوادث عادية من حوادث الطبيعة، وأموراً نتجت عن محض الصدفة، وكما قال الشاعر:

«كن سمكاً يقطن البحر ولا يعرفه... ».

أي أنهم يظنون أنفسهم كائنات غير مسؤولة ولاهية عابثة ولا علم لهم في ملك من يعيشون.

يصبحون في حقيقتهم عبيداً لوثن الهوى والشهوة مصدقين الكذبة المزيفة، كذبة "الحرية" التي همستها النفس والشيطان في

١٥٢. البقرة: ٣.



آذانهم. أي أنهم يقعون ضحايا حمق اعتقاد الشقاء نعيماً. وكما قال نجيب فاضل يعملون على: «تطيير طيارة ورقية بدون أن يعلموا بالسماء». ويقضون أعمارهم بغفلة، في حين أنهم يعيشون ضمن عدد لا محدود من النعم والأفضال الإلهية جاهلين مجترئين على التمرد على النظام الإلهي.

فيا لها من غفلة عجيبة أن يشاهد الإنسان الذي هو أكمل المخلوقات الكونَ بوجه خمول عبوس كالأسماك التي لا علم لها بوجود البحر الذي تسبح فيه.

ويقول الشيخ الجنيد البغدادي:

«أن لا يرى البعض أفضل من أن يروا، لأنهم لا يعتبرون مما يرون».

إن الذين لا يعتبرون من تجليات القدرة والعظمة الإلهيتين الماثلة في الكون، والذين لا يستطيعون الانتقال من الأثر إلى المؤثر ومن الصنعة إلى الصانع قد عميت عيون قلوبهم.

والله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [١٥٣]

١٥٣. الحج: ٤٦.



إنّ الخاصية التي جعلت الإنسان أشرف المخلوقات هي النظر في ملكوت الأرض والسماء بعين العبرة والحكمة. وتحصيل نصيب من معرفة الله من خلال التعمق في التفكر في خوارق الصنعة الإلهية الماثلة في القرآن والكون والإنسان}.

جعلنا الله من عباده العارفين الصالحين الذين يشاهدون الأسرار والحِكَمَ الإلهية التي بثها سبحانه في الكون بعين القلب.

آمين!..







مِن حِكم أولياء الله

حضرة مولانا

جلال الدين الرومي رحمه الله

١٣

مِنْ حِكم أولياء الله

حضرة مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله – ١٣

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله: «كُن قولاً جيملاً يذكر بسهولة، فإن الإنسان هو ما يقال عنه من الكلمات الجيملة».

يقول حضرة مولانا:

«اعمل من أجل عشق الله، واخدم من أجله، وما لك لقبول الناس أو ردهم؟».

{إنّ الإخلاص، أي جعل الغاية محض رضا الله، أهم شرط في قبول الأعمال عند الله. فإذا خلصت النية فإنّ الله تعالى يمنح العبد أجر الأعمال التي لم يستطع القيام بها لعجزه عنها. حتى إنه بمقدار درجة إخلاص النية في القلب يُكثّر الله قليل عبده ويثيبه حتى على أعماله اليسيرة حسنات أمثال الجبال بلطفه وكرمه.

وحال عمرو بن ليث أحد ملوك خراسان وأبطالها مثال جميل على هذه الحقيقة، فقد رآه أحد الصالحين في نومه بعد وفاته، وجرى بينهما الحوار الآتي:

«– ماذا فعل الله بك؟.

– عفا عني.

– بماذا عفا عنك؟

– صعدت يوماً قمة جبل فلما نظرت من الأعلى إلى جنودي، أعجبتني كثرتهم وتمنيت لو أني عشت في زمن النبي ﷺ فأنصره "لو جعلت روحي فداءً في سبيله" فعفى الله عني وغفر لي بنيتي هذه واشتياقي».[١٥٤]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**نية المؤمن خير من عمله...**»[١٥٥]

إنّ النية الخالصة من العمل كالروح من الجسد..

ويقول الله تعالى:

﴿**...فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**﴾[١٥٦]

فعقيدة التوحيد لا تحتمل الشرك، لذلك وجب أداء العبادات والأعمال الصالحة لنيل رضا الله فقط دون غيره.

فلو أُشرِكَ ما هو فانٍ مع الله تعالى في العبادات والحسنات والقربات والخدمات التي ينبغي أن تؤدى من أجل الله تعالى، أي أن يخالط النيةَ هوى نفسٍ كنيل تقدير غير الله، فإنّ أجر الأعمال يضيع من جهة، ومن جهة أخرى يكون قد ارتُكِبَ الرياء الذي يُعتبر

١٥٤. القاضي عياض، الشفا، ٢/ ٢٨-٢٩.

١٥٥. السيوطي، الجامع الصغير، جـ٢، ص١٩٤/ ١٢٧٤٤.

١٥٦. الكهف: ١١٠.

-كما في التعبير النبوي- "شركاً أصغراً"، وهذا أمر محذور للغاية ومضر بالإيمان.

وقد قال رسول الله ﷺ:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»

قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال:

«الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة: إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» [١٥٧]

وكما أخبرنا كذلك رسول الله ﷺ في حديث آخر أن أول من يقضى عليه يوم القيامة هم -ظاهراً- الشهيد والعالم والغني المنفق. لكن الله تعالى سيرد أعمال هؤلاء ولن يقبلها منهم لأنهم خلطوا في أعمالهم مع رضا الله نية إعجاب الناس ونيل تقديرهم.[١٥٨]

فمثلاً، يبني أحدهم في حال صحته مسجداً أو مدرسة أو معهد قرآن، فإذا اشترط وضع اسمه على ما بنى بنيّة إحياء ذكره فقد أضاع أجر عمله. أمّا إذا طلب من أهله أو أبنائه أن يضعوا اسمه بعد موته بنية أن يكون ذلك وسيلة لذكره بالخير والدعاء له فلا حرج في ذلك.

---

١٥٧. أحمد، مسند، جـ ٥، ص ٤٢٩،٤٢٨/ ٢٣٦٣٠/ ٢٣٦٣٦.

١٥٨. انظر: مسلم، الإمارة، ١٥٢/ ١٩٠٥.

وعلى الرغم من هذه الأهمية الكبيرة المولاة للاعتناء بسر الإخلاص في النيات تجد بعض النفوس غير الناضجة قد جعلت "التباهي" طبعاً لها تحت دثار "التواضع". فتراهم يذيعون بين الناس الأعمال الصالحة التي قاموا بها، ويسعون من خلال ذلك إلى شراء الحظوة لدى المجتمع، وتحصيل مدح الناس لهم. ويبذلون جهدهم في تسويق الأعمال -التي زعموا تقديمها لله ﷻ- للناس من خلال عبارات من قبيل، "أنا العبد الفقير لا أختم في الأسبوع إلا ختمة واحدة...". وإن هذا الأمر الشنيع الذي يسمى بـ "فخر التواضع" والذي حتى لو بدى كالفضيلة ظاهرياً فهو مجرد عرضٍ للأعمال؛ يعني تضييع من يقوم بذلك لأجر أعماله الصالحة بيده.

من هذا المنطلق، لا بد للمحافظة على الإخلاص من إخفاء الأعمال الصالحة ما أمكن. لكن ترك عمل صالح لعدم القدرة على إخفائه أمر خاطئ. فمثلاً، عدم الذهاب إلى صلاة الجماعة خشية الرياء هو خديعة من خديعات النفس. أو ترك الصلاة تماماً بحجة: "لا أستطيع أن أصلي بخشوع بعيدًا عن الرياء، لذلك فمن الأفضل ألا أصلي صلاة تُرمى في وجهي"، هو سقوط في فخ الشيطان.

ومن هذه الناحية، فلا بأس من أداء الأعمال الصالحة والخيرات والقربات علناً في حال الضرورة أو إذا كان في ذلك مصلحة كالتشجيع على الخير. ويشترط في مثل هذه الحال ابتغاء رضا الله فقط وحماية القلب من الأمراض كالغرور والكبر والرياء.



ولا ننسى أنّ ربنا يريد منا الصدق الدائم، ويرغب في أن نكون مخلصين في نياتنا. ويريد منا أن نؤدي عبوديتنا له سبحانه بلا عِوَضٍ ولا غرضٍ خالصةً لوجهه ومحض مرضاته.

فينبهنا نحن عباده إلى النتيجة الوخيمة لإشراك الفانيين معه في العبادات من خلال الرياء. يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا...﴾[١٥٩]

ويقول الله تعالى أيضاً في آية أخرى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾[١٦٠]

إذاً يجب علينا كمؤمنين أن نفكر كالتالي:

إنّ الذي وهبنا الروح والمال هو الله تعالى. وقد وعد فوق ذلك بالجنة لمن استخدم هذه النعم في مرضاته، فهل غير الله يمنح مكافأة عظيمة هكذا؟ مَن مِنَ الفانين يقدر على هذا؟ إذن فما إشراك الفانين بالعبادات والطاعات ومراءاتهم بالنسبة للمؤمن الحقيقي إلا اشتغال بعبث !... أيوجد حماقة وانخداع وإضاعة أليمة كإشراك

١٥٩. البقرة: ٢٦٤.
١٦٠. التوبة: ١١١.



الفانين بعبادات وطاعات تؤدى بتضحيات بالنفس والمال بينما يمكن تقديمها لله ﷻ؟.

وقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها بسبب هذه الحساسية تعتني عناية فائقة عندما تتصدق بأي صدقة لئلا يضيع أجرها. وكانت تقابل دعاء المسكين بمثله. فعندما سئلت:

«إنك تتصدقين وتدعين، فلماذا تفعلين ذلك؟»، كان جوابها: «أخشى أن يكون دعاؤه مقابلاً لصدقتي، فأدعو له بمثل ما يدعو، حتى تكون دعوتي مقابل دعوته وتكون الصدقة خالصة لله، فأنتظر ثواب صدقتي من الله تعالى فقط».[١٦١]

إنّ سيدنا علي وزوجه الطاهرة السيدة فاطمة عندما تصدقوا بطعامهم مع حاجتهم له على المسكين واليتيم والأسير، قالوا لأولئك المحتاجين بالحساسية ذاتها:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[١٦٢]

لقد كانت تلك الشخصيات المثالية تبدي حساسية فائقة للحفاظ على إخلاصها، وحتى لا تُسقط ولو ظل المصالح الدنيوية على أعمالها.

---

١٦١. الهيئة، ترجمة وشرح سنن أبي داود، إسطنبول، جـ٦، ص ٣٠٤، ١٩٨٨، مؤلف بالتركية .

١٦٢. الإنسان: ٩-١٠.



ونحن أيضاً لا ننسى أنّ الله تعالى فقط من يستطيع أن يثيب العباد يوم القيامة على عباداتهم وتضحياتهم، لا الفانين. إذاً: فيجب في كل لحظة من لحظات حياة عبوديتنا أن يتردد صدى دعائنا بـ "إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي" في سماء قلوبنا}.

يقول حضرة مولانا:

«أتريد زبونًا لتكسب الذهب الروحي في سوق هذه الدنيا الفانية؟ أثمة زبون خير من الله؟».

{كل تاجر عاقل يهيئ بضاعته بالجودة التي تعجب زبونه حتى يجني الربح من تجارته، ويبذل جهده كذلك في تسويقها بالشكل الذي يعجب زبونه أيضاً.

إنّ المؤمن في هذه الدنيا التي هي بحكم سوق يُنال فيه رضا الله، وبالتالي تُشترى فيه الجنة؛ في حال أداء جميع العبادات والمعاملات والخيرات والقربات في صيغة ترضي الله تعالى، وتقديمها مجتهداً في أن تعجب الله تعالى.

ففي سوق هذه الدنيا، وكما قال أبو بكر: الليل والنهار رؤوس أموالنا، والأعمال الصالحة بضاعتنا، والجنة ربحنا، وجهنم -أعاذنا الله منها- خسارتنا وإفلاسنا.

ويجب ألا ننسى أبداً أنّ أربح تجارة في هذه السوق هي التي تقام مع الله تعالى أكرم الأكرمين. لأنه لا يستطيع بشر أن يعطي الثمن



الذي يعطيه الله. والله يثيب عبده إحساناً منه على تقديمه النعم التي وهبها الله إياه بنية الشكر إلى سبعمئة ضعف لدرجة إخلاص العبد.

والله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [١٦٣]

﴿...وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا...﴾ [١٦٤]

وعليه، فإنّ أعلى ربح في نظر المؤمنين العارفين هو نيل ثواب الله أكرم الأكرمين اللامحدود اللائق بعظمة ألوهيته.

وما أحسن ما توضح به الحادثة التالية هذه الحقيقة:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

قحط الناس في زمان أبي بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا تمسون حتى يفرج الله عنكم. فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال: قدمت لعثمان رضي الله عنه ألف راحلة برا وطعاما، قال: فغدا التجار على عثمان رضي الله عنه فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها

١٦٣. البقرة: ٢٦١.
١٦٤. المزمل: ٢٠.

على عاتقه فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: قد بلغنا أنه قد قدم لك ألف راحلة برا وطعاما، بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة، فقال لهم عثمان ﷺ: ادخلوا فدخلوا فإذا ألف وقر قد صب في دار عثمان ﷺ، فقال لهم: كم تربحونني على شرائي من الشام؟ قالوا: العشرة اثني عشر، قال: قد زادوني، قالوا: العشرة أربعة عشر، قال: قد زادوني، قالوا: العشرة خمسة عشر، قال: قد زادوني، قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زادني بكل درهم عشرة، عندكم زيادة؟ قالوا: لا!! قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة، قال عبد الله: فبت ليلتي فإذا أنا برسول الله ﷺ في منامي وهو على برذون أشهب يستعجل وعليه حلة من نور وبيده قضيب من نور وعليه نعلان شراكهما من نور، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد طال شوقي إليك، فقال ﷺ:

«**إني مبادر؛ لأن عثمان تصدق بألف راحلة، وإن الله تعالى قد قبلها منه وزوجه بها عروسا في الجنة، وأنا ذاهب إلى عرس عثمان**» خرجه الملاء في سيرته.. [١٦٥]

إنّ الأرواح السامية الفانية في الله، بتخلصها من وجودها وأنانيتها، تعيش في حالة وصال رائع لدرجة أنّ أعينهم وقلوبهم لا

١٦٥. انظر: أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، جـ٣، ص ٤٣-٤٤، دار الكتب العلمية.



تعود ترى غير الله ﷻ. وينتشون بمتعتهم بوصال الله، ويصير بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بهذه النشوة الروحية أثمن من كل اللذات الدنيوية. ويعيشون في مناخ الوجد والاستغراق المطابق تماماً لما ذكره فضيلة يونس أمره في أبياته إذ يقول:

«وجدت عسل الأعسال، فلتكن منحلتي نهباً».

إنّ المؤمنين العارفين المدركين أنّ خير زبون في سوق هذه الدنيا الفانية هو الله تعالى ذو الفضل والكرم اللذين لا حد لهما؛ يرون استطاعتهم تقديم أمانة أرواحهم وأموالهم لله تعالى تطوعاً بينما يمتلكون الفرصة قبل أن يتركوها إجباراً يوماً ما؛ منّة وفضلاً.

إضافة إلى إدراك أنّ الله تعالى هو المشتري الوحيد للعبادات والطاعات يجرّهم إلى أدب استثنائي واحترام وذوق لطف في العبادات.

كما أنّ المرحوم والدي موسى أفندي كان عندما يعطي أحداً يهتم اهتماماً شديداً بأداء هذا الأمر بذوق كبير مستحضراً أنّ الأعطية ستصل يد قدرة الله قبل يد المحتاج. وكان يضع النقود في ظرف نظيف ثم يقدمه مزيناً بعبارات لطيفة مطيّبة للخاطر من قبيل: "السيد فلان المحترم نشكركم لقبولكم هديتنا...".

ما أجمل عبارات الشيخ أبي الليث السمرقندي مشيراً إلى حكمة هذا الذوق إذ يقول:



«يجب على المعطي حين يعطي أن يكون شاكراً للآخذ. لأنّ نصيب الآخذ هو قضاء حاجة دنيوية. أمّا نصيب المعطي فهو الرضا الإلهي والنعم اللامحدودة في الآخرة. بالتالي، نجد أنّ المعطي أكثر ربحاً، ولذلك يجب أن يشكر الآخذ».

ويقول أولياء الله:

«العبادة تأخذ الإنسان إلى الجنة، والأدب والتعظيم في العبادة تأخذ إلى الله وتجعلك خليلًا له»}.

يقول حضرة مولانا:

«ليبحث الحجاج هناك في حجهم عن صاحب بيت الله فإذا وجدوه وجدوا الكعبة في كل مكان».

{يريد الله ﷻ منا، نحن عباده، حياة عبودية ينتظم فيها الظاهر والباطن والشكل والروح والقلب والجسد في تناغم وتكامل فريد. مثلاً، كما أنّ الكعبة قبلة الجسد في الصلاة فيجب أن تكون قبلة القلب دائماً رب الكعبة. فقلب مع الله هو كأنه في الكعبة أينما كان. أمّا من توجه للكعبة ظاهرياً وليس مع الله تعالى قلبياً فهو في حال معاكسة تماماً. ولا يخفى أنّ العبادات التي تؤدى بقلب غافل عن الله تعالى هي بعيدة عن الخشوع، ومجرد حركات شكلية رياضية، أي أنها فاقدة لأجرها ونورها.



أي لا بد من الانتباه للحياة القلبية وحمايتها من الغفلة. ولا بد أيضاً من كشف الحياة القلبية ونيل النصيب من معرفة الله، والكون قلبياً مع الله تعالى. يقول ربنا في صدد بيان سبيل ذلك:

﴿...**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[١٦٦]

إنّ السعادة القصوى أن تكون بقلبك مع الله تعالى، وترسيخ هذه المعية في القلب. وإذا ما نال الإنسان هذا النضج الروحي يعيش جو العبودية لربه في كل مرحلة من مراحل حياته.

كذلك يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿...**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ**...﴾[١٦٧]

﴿... **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[١٦٨]

﴿...**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**...﴾[١٦٩]

﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ... ﴾[١٧٠]

أي يخبرنا ربنا بأنه أقرب إلينا منا.

---

١٦٦. الرعد: ٢٨.

١٦٧. الحديد: ٤.

١٦٨. ق: ١٦.

١٦٩. الانفال: ٢٤.

١٧٠. البقرة: ١٨٦.

ينبغي على العبد ألا يغفل عن مضمون هذه الآيات. وأن يعيش بنور قلبه معية الله على الدوام. وبعد بلوغ هذه الحال يصبح كل مكان في نظر المؤمن كأنه الكعبة، ومحط تجلي الكرم الإلهي. أو يوفق الله تعالى عبده لكثير من الأعمال الصالحة التي تكسبه الأجر الذي سيناله عند الكعبة.

وبالتعبير الشهير: الطرق التي توصل العبد إلى الله تعالى كثيرة بعدد أنفاس الخلائق. والمهم أن تكون ذا قلب يسعى في تحصيل رضوان الله على الدوام.

وإنّ تخليص القلوب المكلومة التي هي محط النظر الإلهي من عللها، هو بشكل خاص أحد أفضل السبل الموصلة إلى رضوان الله تعالى، كما أنّ ملا جامي رحمه الله يقول:

«أُجبر قلبًا فهو الحج الأكبر

فقلب واحد خير من آلاف الكعبات

الكعبة مبنى بناه إبراهيم ابن آزر

أما القلب فهو محط نظر الله الجليل الأكبر».

من جهة أخرى، لا يوجد عبادة تقوم مقام عبادة أخرى. فصور العبادة التي يمكن أن تكسب ثواب الحج أو أجر التواجد عند الكعبة لا يمكنها أن تسد مكان "فريضة الحج". والمراد قصده هنا: هو وجوب أداء العبادات بما فيها الحج ضمن إدراك معية



الله ﷻ. وإلا فإنّ أجر وبركة العبادات التي تؤدى بقلب غافل عن الله ﷻ سيضيع}.

بَلَّغَنَا الله جميعاً الإخلاص وألحقنا بفضله وكرمه بعباده السعداء الذين تفضل عليهم بحفاظهم على إخلاصهم حتى آخر نَفَسَ.

آمين!..





فهرس



ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات

ملاحظات